مـاروسـيا

شبابنا

٤

مـاروسـيا

الطبعة الثانية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

١

تَوالَتْ غاراتُ التَّتَر على« أكْرانِيا(١) » في القُرُون الوُسْطَى ، وانْقضُّوا عليها غير مرّة كالعاصف الهدّار ، يَنْهَبُون ويَسْلُبون ، ويَدُكُّون المعاقِل ، ويدُقُّون الأعناق ، ويَضْربون على أبنائها الذّلّة والمَسْكنة ، ويَفْرِضون عليهم الجِزَى والمُكُوس (٢) .

وكان أبناء « أكرانِيا » يدافعون عنها في كلّ مرّة دفاعَ الأبطال ، ولكنّ عدوّهم كان أعظم منهم قوّة ، وأوْفَر عَدَدًا ، وأكْمَل

(١) أكرانيا : بلد زراعي يقع إلى الجنوب الغربي من روسيا ، وعدد سكانه ثلاثون مليون نفس وهو اليوم من جمهوريات الاتحاد السوفييتي .

(٢) الجزى : جمع جزية ، مايؤخذ من المغلوب — والمكوس : جمع مكس ، الضريبة .

سلاحاً ، فكانوا يرتدّون عنه مقهورين مغلوبين على أمرهم .

ولكنّهم لم يكونوا ينامُون على الضَّيْم ، بل كانوا لا يَفْتأون يُثيرون في وجه العدوّ القلاقل ، ويُوقِدون نيران الفِتَن ، حتّى إذا لاحَتْ لهم الفرصة المواتية ، ثاروا ثورتَهم ، ونكّلوا بالعدوّ ، وأنقذوا البلاد من مَخالب المستعمرِ المُجْتاح ، وهكذا دواليْك [1] . . .

وفي مُسْتَهَلّ القرن الخامس عشر الميلادي ، جدّد التّتر غَزْوَهم ، وأغاروا على « أكرانيا » وأعملوا فيها الطّعن والضّرب ، فهبّ أبناؤها يستبسلون في الذَّوْد [2] عن وطنهم أيّما استبسال ، غير أنّ زعيمهم الشيخ ، اضطُرّ في آخر الأمر إلى التسليم ، وقَبول المحالفة التي عرَضَها عليه التّتر .

وسارت الأمور بعد ذلك سيرًا حسنًا ، بَيْد أن التّتر تنكّروا للمحالفة ، ولمّا يَمْضِ [3] على إبرامها بضعة أشهر ، فعاد أهل « أكرانِيا » يلْقَوْن من حاميات العدوّ الأمرَّيْن [4] ، وكانت تحتلّ القسم الأكبر من البلاد .

وضاقت الدّنيا بزعيمهم الشّيخ على رَحْبِها ، ونَدِم أشدّ النّدم على أن صدّق وعود العدوّ ومواثيقه ، فنخر الهمّ والغمّ فؤاده ، ومات بعد

---

(١) دواليك : كرة بعد كرة . (٢) ذاد يذود ذوداً عن وطنه : حماه ودافع عنه .
(٣) لما يمض : لم يمض بعد . (٤) الأمرين : الفقر والهرم أو نحوهما . يقال لقي منه الأمرين : أي الشر والأمر العظيم .

قليل يأسًا وحزنًا .

وانقسمت « أكرانيا » بعد موته إلى حزبَيْن :

حزْب يرى مهادنة التَّتر ، ومسالمتهم ، والسَّيْر فى ركابهم ، لينتزع منهم باللين والمفاوضة حقّ الوطن المسلوب ، وإن كانوا قد أخفَروا الذِّمام ونكثوا العهد، وزعيم هذا الحزب كان قد اتَّخذ مدينة « جادياش » مقَرًّا له وهى تقع فى شرق « أكرانيا » .

وحزْب يرى أن يستعدى[1] « بولونيا » على التَّتر ، ويستنصرها على الغُزاة الفاتحين ، وزعيمه كان قد تحصّن بمدينة « شيجيرين » الواقعة فى غرب « أكرانيا » .

وكان اختلاف الرأى والوسيلة ، يفصل هذين الزّعيمين ، ويشطر البلاد والسكّان معهما شَطْرَيْن، حدُّهما الفاصل نهر « دنيبر » الذى يخترق « أكرانيا » من الشّمال إلى الجَنوب .

ونشأ فى البلاد حزْب ثالث انبثق من جزيرة صغيرة فى وسط النَّهر ، وكان ينادى بالاستقلال الكامل ، ولا يعتمد فى الحصول عليه إلاّ على أبناء الوطن وبسَالتهم ، ولكنه كان ويا للأسف ضئيل العَدد قليل العَتاد . وكان نَفَرٌ من أعضائه القلائل ، قد تفرَّقوا فى مختلف أنحاء البلاد ، يبثّون الدّعوة لحزْبهم ، ويُعِدُّون سِرًّا عُدَّتهم لليوم العظيم ، ويتعارفون برموز وعبارات اصطلحوا عليها ، وكلهم فدائيُّون من جماعة

(١) استعدى فلاناً : استعان به واستنصره .

القوزاق ، وهم فرسان مشهود لهم بالبأس والشّجاعة .

تلك كانت حال « أكرانيا » فى العهد الذى تبدأ فيه قصّتنا هذه . أمّا مسرح حوادثها الأولى فقد كان منزل القوزاق « دانيلو شابان » وهو ممّنْ ينتمى إلى هذا الحِزْب الثالث .

* * *

كان منزل « دانيلو شابان » يقع فى بُقْعة من بِقاع[1] الرِّيف الجميل . فى الجَنوب الغربى من « أكرانيا » على مَقْرُبة من نهر « دنيبر » وكانت تسكنه معه أسرته ، وتتألف من زوجته ، وطفلين صغيرين ، وطفلة فى الربيع العاشر من العمر ، تسمّى « ماروسيا » .

وكان هذا المنزل من أجمل منازل القرية موقعًا ، فقد بُنِىَ عند سَفْح جبل أخضر خُضرَةَ الزُّمرّد ، وانبسط أمامه سَهْل واسع يموج بالعشب ومتنوّع الأزهار ، وقامت إلى يساره غابة كثيفة الدَّوْح والشجر ، لا يكاد ضوء الشمس يتسرَّب إليها ، وامتدّ عن يمينه وادٍ عميق لا شِعاب[2] فيه ولا دُروب[3] ، يجرى فيه نهر زاخر هَدّار ، تنعكس على صفحاته زُرْقة السماء عندما يطوف بالبساتين والغِراس ، ويحول لونُ مائه إلى زُرْقة داكنة[4] عندما يمرّ بالصُّخور السُّود

(١) بقاع : جمع بقعة . وهى القطعة من الأرض .
(٢) الشعاب : جمع شعب بكسر الشين — ما انفرج بين جبلين .
(٣) الدروب : جمع درب بفتح الدال وهو الطريق .
(٤) داكنة : يميل لونها إلى السواد .

والحجارة العابسة .

هذا وتحيط بالمنزل حديقة فَيْحاء[1] غنّاء[2] ، تناثرت فيها شُجَيْرات الورد والكرز ، وبدت نوافذ المنزل من خلالها لمّاعة برّاقة .

وفى أيام المواسم والأعياد ، كان منزل « دانيلو شابان » ملتقى الضّيوف ، ومجتمَع الجيران والأهل والأصدقاء ، يؤمّونه[3] من كل حَدَبٍ وصَوْب ، ما بين رجال وسيِّدات ، وفتيان وفتيات ، وشيوخ وأطفال ، فيقضى فيه الزُّوّار ساعات طويلة ، متنادمين على الطعام والشراب ومنوّع الأحاديث .

* * *

وفى مساء يوم من أيام الربيع ، أقبل على منزل « دانيلو شابان » نَفَر[4] من الزّوّار والضّيوف وكلهم ساهِمُ[5] الوجه ، مشتّت الفكر ، ملتزم الصمت ، وكان أصحاب المنزل على مثل تلك الحال من التقطيب والعبوس ، لا تنفرج شَفَتا الكبير والصغير منهم عن أية بارقة من بوارق الابتسام ، وكان المجتمعون يتصفح بعضهم وجوه بعضهم الآخر ، مستغنين بذلك عن تجاذب أطراف الحديث ، كأنما كان يَشْغَل

---

(١) فيحاء : مؤنث أفيح أى الواسع .

(٢) غناء : مؤنث أغن أى كثير الشجر والعشب .

(٣) يؤمونه من كل حدب وصوب : يقصدونه من كل ناحية .

(٤) نفر : جماعة . (٥) ساهم الوجه : عابس متغير اللون .

أذهانهم وخواطرهم همّ واحد ثقيل ، ذلك أن العدوّ كان يزحف إلى مدينة « شيجيرين » ويُشيع الخراب فى زَحْفه .

وكان القوم بين حين وحين ، يوجّهون الخطاب إلى واحد منهم يدعى « أندرى كروك » ويطرحون عليه بعض الأسئلة فيجيبهم عنها بما يعلم .

وحينما كان الرجال يتحدّثون ويتشاورون ، كانت النساء يتركْنَ مغازلهنّ ويُرْهِفْن السَّمْع إلى الحديث ، وعلامات القلق والاضطراب مرتسمة على وجوههنّ ، حتى إذا سكت الرجال وانصرفوا إلى التدخين ، أقبلت النسْوة يتحدّثْن معًا فى أصوات تشبه الهَمْس ، فمن قائلة :

— « ها هى ذى معركة أخرى قد نشبَت بالقرب من "فليكا" » .

ومن قائلة :

— « تُرَى كم عدد القَتْلَى فيها ؟ » .

إلى أخرى تهتف متحسِّرة :

— « لقد أحرقوا " ترنى " وأحالوا منازلها إلى رماد . . . » .

وكان بين أولئك النسْوة سيدة عجوز ، قد عصَبتْ رأسها بمِنْديل أسود تدلّت من أطرافه خُصَل شعر فَضَّضته يد السنين والأحزان ، فتناولت الكلام وقالت وعيناها تلمعان لمعانَ النجوم :

— « إن أبنائى قد ماتوا جميعًا ، فأنا وحيدة فى هذا العالم . لقد قالوا لى عندما ذهبوا إلى المعركة : نحن ذاهبون يا أمّاه إلى القتال . فنظرتُ إليهم وقلت : نِعْمَ ما تفعلون يا أبنائى ، سيروا على بركة الله . فقالوا لى :

إن "أكرانيا" ستستعيد استقلالها، فقلت لهم : أجل يا أبنائى . . .
ثم ساروا إلى ميدان القتال وكانوا ثلاثة ، فلم يعد منهم أحد ، بل سقطوا جميعًا قَتْلَى دون الحِمَى ، ومع ذلك فوطننا لم يتحرّر ولا استعاد استقلاله . . . »

استدّر هذا الكلام من النسْوة ستَخين العبَرات ، وشملت الحضور كآبة لمَ ينْجُ منها حتى الأطفال الصغار، فقبعوا[1] فى زاوية من زوايا الغرفة لا يلعبون ولا يضحكون ولا يتحرّكون ، حابسين أنفاسهم فى صدورهم، يطالعون بنظراتهم وجوه « الكبار » ويُصْغُون إلى أحاديثهم .

وكانت هناك طفلة صغيرة شقراء الشعر ، مورّدة الخدّين ، قرمزيّة الشفتَيْن ، برّاقة العينين ، تصغى إلى حديث القوم فى ظمأ ونَهَم ، وتشغل نفسها بأعواد من القشّ تتناولها من حِضْنها عودًا بعد آخر وتنسج منها حصيرة جميلة .

وعلى حين فجأة ، سمع المجتمعون نَقْرًا خفيفًا على زُجاج إحدى النوافذ ، فاضطربوا للمفاجأة ، وكذّبوا أسماعهم ، ولكن النَّقْر عاد أشدّ وضوحًا وأقوى ضَرَبات ، فسَرَت الرّعدة فى قلوب النساء والأطفال ، ونهض ربّ المنزل إلى الباب يفتحه ، وانكبّ كلّ رجل على « غليونه » يحشوه بالتبْغ ويسلّط عليه لَهَب عيدان الثقاب .

---

(١) قبعوا : تواروا .

وصل « دانيلو » إلى الباب فهمّ بأن يفتحه وهو يقول :

— « مَن الطّارق ؟ » . فردّ عليه صوتٌ حازم يقول :

— « مسافر ضلّ الطريق يسألك المأوى » . فقال « دانيلو » :

— « على الرّحْب والسّعَة » .

ثم فتح الباب ودعا الضيف للدّخول فدخل .

ولما اجتاز الضيف عتَبة الغرفة ، شخَصَتْ إليه الأبصار ، فرأته رجلاً فارِعَ القامة ، جميل المنظر ، نبيل المظهر ، من أولئك الرجال الذين يأخذ سَمْتُهم[1] بلُبّ الرّائى ، فيفرِض عليهم التبجيل والتوقير .

وازداد القوم تفرُّسًا فيه ، فراعهم منه باهر جماله ، وبادى قوّته ، ولِين أعطافه ، وبريق عينيه الذى لا يَعْدله فِرِنْدُ الجواهر ولا لألاء الكواكب ، فخفّوا يستقبلونه استقبالَهم لأىّ ضيف يَطْرُق أبوابهم فى جُنْح الليل ، فأكرموا وِفادَته ، ودَعوْه للجلوس فجلس ، وقدّموا له بعض حُلْو الشراب فارتشفه[2] شاكرًا .

وأنْعَمَ المجتمعون النظر فى حركات الزائر الضيف وسَكَناته ، فأكْبَروا ما لمسوه فيها من خِلال نبيلة ، وقلبٍ وديع ، وأدب جَمّ ، وأصغوا إليه بأسماعهم وقلوبهم حينما أخذ يحدّثهم عن الكوارث المُحيقة بالبلاد ، ويصف لهم ما شاهد فى طريقه إليهم ، وعلى مقرُبَة من ديارهم ، من مدنٍ مُحْرَقة ، وحقولٍ مُدَمَّرة ، وبِقاعٍ يَعيث فيها العدو فسادًا .

(١) السمت : هيئة أهل الخير . (٢) ارتشف الماء : بالغ فى مصه .

وتساءل الحضور فى أنفسهم ، مَنْ يكون هذا الرجل يا تُرَى ؟ ومن أين أقبل ؟ وأىّ بقعة يقصد ؟ وأيّة مدينة هى مسقط رأسه ؟ ولكنهم وقفوا عند حدّ التساؤل ما دام الزائر الغريب لم يكشف لهم عن دخيلة أمره . أما « دانيلو شابان » فقد كفته صيغة التحية ليعرف فى الرجل واحداً من أعضاء حِزْبه .

وبدا لهؤلاء المتسائلين ، أن الرجل يعرف أشياء كثيرة وإن يكن فى مقتبل العمر وعنفوان الشباب ، فهو عليمٌ بأخلاق التَّتَر وعاداتهم ، واقفٌ على أهواء البولونيين ونوازعهم ، ولاح لهم كذلك أن الرجل ليس غريبًا عن جزيرة « سَتَش »[1] .

واستقرّ فى أذهانهم أيضًا أن الرجل مُلِمٌّ بأحوال « أكرانيا » كل الإلمام ، وأنه قد يكون طاف بها طولاً وعرضًا ، وزار مدنها الكبيرة وقُراها الصغيرة ، ولعلّه سكن بعض هذه أو تلك .

ولطالما أثارهم حبّ الاستطلاع ، فهمُّوا أن يسألوه عن هذا الجُرْح البارز الأثر فى خدّه الوَسِيم ، غير أنهم أمسكوا عن سؤاله خَشْيَة أن يُرْمَوْا بالتطفّل والفضول ، فلكل امرئٍ أسراره الخاصة إذا شاء كَتَمها

---

(١) ستش : جزيرة قائمة فى نهر دنيبر الذى يخترق روسيا وأكرانيا ويصب فى البحر الأسود ، سكنها فيما مضى جماعة من القوزاق كان يطلق عليهم اسم « زابوروج » وأقاموا فيها معسكرهم وحرّموه على النساء ، فمن هذه الجزيرة كان هؤلاء القوزاق يغيرون على التّرك والتّتر فى غزوات شديدة رهيبة .

عن الناس ، وإن شاء أذاعها فيهم وتحدّث عنها .

على أن الترحيب الجميل الذى لقيه المسافر الغريب فى ذلك المنزل الكريم ، جعله يتبسّط فى حديثه ، ويتناول به مختلف الأمور ، فوصف لهم المعارك التى دارت رحاها فى هذا الجزء من البلاد وصفًا دقيقًا مَلَكَ على السّامعين أنفاسهم ، حتى لكأنهم اشتركوا مع المقاتلين فى خوض غِمار تلك المعارك ، فثارت الحمية فى نفوس الرجال والنساء ، وطار النوم من أعين الأطفال ، فتعلّقت أبصارهم بشفتَىْ ذلك المتحدّث الراوية .

وسمع القوم بغتةً صوت طَلْق نارى أعقبه صوت طَلْق آخر ، ثم تتابعت أصوات طلقات أُخرَ فرَانَ[1] الصمت على الحاضرين ، وأرهفوا السَّمْع ، وعرفوا أن إطلاق النار منبعثٌ من جهة السهل ، ولكن ما لبث السكون أن عاد يُخيّم على ذلك السهل ، فقال الرجل الغريب :

— « ماذا ؟ أيتكلم البارود حتى فى ضاحيتكم الجميلة الهادئة ؟ »

فقال « أندرى كروك » :

— « لا رَيْبَ أن مصدر هذا هو الطريق الكبير المؤدّى إلى مدينة " شيجيرين " » . فقال « دانيلو » وهو يهزّ رأسه :

— « مصدره جهات متعددة لا جهة واحدة » .

وكان الهزيع[2] الأول من الليل قد أوشك ينقضى ، فنهضت النساء

---

(١) ران عليه : غلب عليه . (٢) الهزيع من الليل : طائفة منه قيل ثلثه أو ربعه .

عائدات إلى منازلهن ، واصطحبت كل أم طفلها أو حملته بين ذراعيها .

وكانت أولئك النسوة يختلفن مظهرا وعمرا ، فمنهن العجوز والشابة ، ومنهن الطويلة القامة القوية الأضلاع ، والقصيرة القد النحيفة البدن ، ولكن كن يشتركن جميعا في أمر واحد ، هو ما يبدو على وجوههن من أمارات الحزم والعزم ، ورغبة الكفاح حتى الموت في سبيل الوطن .

ونهض على أثرهن الرجال ، فانفرط عقد المجتمعين ، وتبادل المنصرفون والمنصرفات تحية الوداع ، وعاد كل إلى منزله . ولم يبق مع « دانيلو » إلا صديقه الحميم « أندرى كروك » وصديق حميم آخر يدعى « سمان فورشيلو » وبقى معه كذلك الضيف الغريب .

وتركت ربة المنزل زوجها وضيوفه ، وذهبت إلى بعض شأنها ، فقال الضيف الغريب يخاطب الرجال الثلاثة وقد اطمأن إليهم جميعا :

— « أما من وسيلة أبلغ بها مدينة "شيجيرين" ؟ »

طرح هذا السؤال بصوت منخفض كمن ينبه إحساسه إلى خطر داهم قريب ، فقال « دانيلو » وقد خفض هو أيضا صوته عفوا غير عامد :

— « ذلك أمر صعب فعسكر العدو يسد المسالك والشعاب إليها » .

أما صديقاه فلم ينبسا[1] ببنت شفة ، ولكن قطب كل منهما حاجبيه ، وأطلق من « غليونه » سحابة كثيفة من الدخان ، فكأنهما بعملهما هذا قد شاطرا « دانيلو » رأيه ومخاوفه ، دون أن تنفرج شفاههما

(١) ينبس : يتكلم وأكثر استعماله فى النفى .

عن كلمة من الكلمات . وحدّق الضيف الغريب ببصره إلى وجه « دانيلو » ثم إلى وجه صديقَيْه، فما اختلجت لأحد منهم قَسَمَة من القَسَمات ، ولا طَرَفَتْ له عَيْن ، فاستأنف الحديث وقال :

— « ولكن لا بُدَّ لى من الوصول إلى شيجيرين » تَوًّا ومن أقصر طريق » . فقال « أندرى كروك » متسائلاً :

— « تَوًّا ومن أقصر طريق ؟ إن الغُراب ليعجز عن الوصول إليها ».

فقال الغريب :

— « أهى بعيدة جدًّا من هنا ؟ » .

فقال « فورشيلو » وهو يطيل النظر إلى عينى الغريب :

— « ليس بُعْدُ الطريق هو الذى يعوق دون الوصول إليها ، بل العقبات القائمة فيه » . فقال الغريب :

— « نحن معاشرَ الجوّالين ، لا نملك دائمًا فى أسفارنا أن نختار الطرق الجميلة المعبّدة، فإن عزّ علينا الطريق السّهْل الأمين، استعضنا عنه بالطريق الوَعْث[1] ، بل بشَرّ من الطريق الوَعْث ، فلا ننكص على أعقابنا ، ولا نتردّد فى أمرنا إذا كان علينا أن نبلغ غايةً من الغايات . والسَّعيد منَّا من استطاع أن يعتمد فى رحلته على دليلٍ نصيح ، ورفيقٍ وفىّ موافق ، ولست أكتمكم أيُّها السادة الأجلاء ، أننى كثيرًا ما وُفِّقت فى أشدّ المواقف حَرَجًا وبأسًا ، إلى الرفيق الأمين صاحب القلب

(١) الوعث : الغليظ الشاق .

الشجاع ، والساعد الشديد ، والقدم التى لا تتعب ، بكان فوق ما آمل وأتمنّى » .

فرفع « دانيلو » وصديقاه رؤوسهم عند سماعهم هذا الكلام. وقال « دانيلو » :

ــ « إنك لعلى صواب ، فالرفيق الشجاع المخلص يساوى كنوز العالم بأسرها » . وأردف « أندرى كروك » قائلاً :

ــ « لا تعوز " أكرانيا " القلوب الباسلة ، فوطننا ولا فخر ، لا يقل فى هذا عن كل وطن آخر » . فقال « دانيلو » :

ــ « ما أصدق قولك وأصوبه يا عزيزى ــ فإن باهى "البولونيون" الأمم بسادتهم وأمرائهم ، وافتخر التتر والترك بسلاطينهم ، فإنما نعتز نحن بأمر يعدل كل ما عداه من الأمور ، ذلك هو رباط الأخوة الذى تجتمع عليه الجوانح والقلوب » .

وأعقب هذا الكلام صمت عميق ؛ وعاد الرجال الأربعة إلى تبادل النظرات ، فكانت سبيلهم إلى التفاهم دون حاجة إلى توثيقه بالألفاظ والكلمات ، فقال الغريب :

ــ « إن إخوانكم فى " ستش " أيها السادة ، يقرءونكم التحية ، ويبثونكم وافر الإجلال ، فأنا رسولهم إلى مدينة " شيجيرين " » .

فقال الأكرانيون الثلاثة :

ــ « نحن طوع بنانك وكلنا لك الصديق الصدوق » .

فقال رسول « ستش » :

— « ماذا عندكم من الأنباء توافونى به ؟ فزعيمٌ يمشى فى ركاب التَّتَر ، وزعيم يفاوض "البولونيين" ويستنجدهم » .

فقال صديقا « دانيلو » وقد ارتسم الحزن على وجهيهما :

— « ذلك ويا للأسف صحيح كل الصحة ! » .

فقال رسول « ستش » :

— « وهذا ما يزيدنى عزمًا على بلوغ مدينة " شيجيرين " أسْرَعَ ما أستطيع » . فقال « فورشيلو » :

— « ولكن الطرق إليها مقطوعة كلها » . فقال الرسول :

— « أحتى طريق " جونا "» ؟

فقال « فورشيلو » :

— « أجل . لقد احتلّه التّتر ونصبوا فيه المتاريس ومُعَدّات الدفاع » .

فاستسلم الرسول بعد سَماعه هذا الحديث إلى التفكير ، لا فى المصاعب والمشقّات ، بل فى الوسيلة التى تمكّنه من بلوغ غايته ، فما هى إلا لحظة قصيرة قضاها منطويًا على نفسه ، حتى اعتدل فى جلسته وقال :

— « نحن قوزاق "ستش" لا نؤيّد الحزب الذى يميل إلى التّتَر ، ولا نصعّد هَوانا مع الحزب الذى يعتمد على "البولونيين" ، فإنما نحن مع الأكرانيين ليس إلا . . . فعلىّ إذن أن أصل إلى مدينة " شيجيرين "

لا محالة . . . فقد قيل إن أحد الزعيمين قد باع نفسه فما شأن الآخر » . فقال « أندرى كروك » :

— « الزعيم الثانى رجل فاضل مستقيم السّيرة والسّريرة[1] . »

فقال « شتشڤيك » وهو اسم الرسول :

— أعرف ذلك ، وأعرف عنه أيضًا أنه رجل متكبر عنيد صُلْب الرأى ، فقد تجرّه هذه الصفات إلى إضاعة "أكرانيا" بدّ لاً من إنقاذها ، فسُخْطُه وغضبه قد سدّا عليه مسالك البصيرة ، وثورته على التّتر قد أنْسَتْه أن البلاد محاطة بالأعداء من كل جانب ، فأخْشَى ما نخشاه أن يزيد النار ضِرامًا إذا ما استجار "بالبولونيين" ،وأن يكون انقسام البلاد إلى معسكرين مدْعاةً إلى ضَياعها ، فهمّتى أن أصل إليه وأحمله على الانضمام إلى الزعيم الآخر ، فى سبيل توحيد القوى والجهد ، حتى لا يبقى لنا إلاّ عدو واحد نحاربه ، فلابُدَّ لى إذن أن أراه قبل أن يُبْرِم أمْرًا من الأمور ، وقبل أن يسْبِق السيف العَذْل[2] ، فلو تأخرت . . . » .

وهنا سكت « شتشڤيك » ، وسرّح طَرْفَه فى أنحاء الغرفة ، فوقع

---

(١) السريرة : ما يسره الإنسان من أمره . يقال هو طيب السريرة أى طيب القلب صافى النية .

(٢) العذل : اللوم . وقولهم سبق السيف العذل مثل يضرب لما قد فات وأصل ذلك أن الحارث بن ظالم ضرب رجلا فقتله فأخبر بعذره فقال : سبق السيف العذل .

على طفلين نائمين نومًا هادئًا على أحد المقاعد ، وكانت ربّة المنزل لا تزال غائبة عن الحُجْرة ، فهمّ بأن يستأنف حديثه ، ولكنه أمسك عنه بعد إذ لمح فى زاوية الحُجْرة عينين برّاقتين شاخصتين إليه كأنهما تَنْهَلان حديثه نَهْلاً .

وكان « دانيلو » قد تتبّع نظرات « شتشقيك » ، فعرف السبب الذى شغله عن متابعة الحديث فقال :

ـ « إنها ابنتى ، وهى طفلة رزينة عاقلة ، وعقلها أكبر من عمرها ، وهى على حداثة سِنّها تفيض حمية ووطنية » ثم ناداها قائلاً :

ـ « " ماروسيا " . . . تعالَىْ » .

فاقتربت « ماروسيا » من أبيها وكانت ترتدى قميصًا مطرزًا ، وثوبًا أزرق ، وحِزامًا أحمر شُدّ به خَصْرُها ، وكان شعرها الأشقر الجميل الملألئ بلون الذهب ، والناعم نعومة الحرير مضفورًا فى ضفيرتين طويلتين ، مرصّعًا ببعض الزهرات وفْقًا لعادات الفتيات فى تلك البلاد ، فقال لها أبوها :

ـ « أكنت تُصْغين إلى حديثنا يا " ماروسيا " ؟ » .

فقالت « ماروسيا » :

ـ « لم أشأ أن أصغى إليه ، ولكننى سمعت بعضه عَرَضًا ، فحملنى على الإنصات والإصغاء . » فقال لها أبوها :

ـ « فماذا سمعت منه يا ابنتى ؟ » . فقالت « ماروسيا » :

— « سمعت كل شيء » .

وكان صوتها وهى تُفْضِي بهذه الكلمات ، جميل النَّبَرات حُلْو النَّغَم ، فقال لها أبوها :

— « قولى لى ماذا سمعت يا حبيبتى ؟ » .

فوجّهت «ماروسيا » نظرات عينيها البرّاقتين صَوْبَ رسول « ستش» وقالت :

— « فهمتُ أنه لابُدّ لضيفنا الكبير من الوصول سريعًا جدًّا إلى "شيجيرين" وأنه يتحتّم عليه فى سبيل خلاص " أكرانيا " مقابلة الزعيم » . فقال « دانيلو » :

— « أرى أنك قد سمعت كل شيء ، وفهمت كل شيء ، والآن أصغى إلى يا " ماروسيا " إن هذا الذى سمعته يجب أن يبقى فى أعماق صدرك فلا تحدّثى به أحدًا ، فإن سألك سائل أو استجوبك مستجوب ، فقولى إنك لا تعرفين شيئًا ، أتدرين يا " ماروسيا " ما معنى كلمة سرّ ؟» .

فقالت الطفلة الجميلة :

— « هو شيء يحفَظه الإنسان فى أعماق صدره ، ولا يبوح به مهما كلفه الأمر » . فقال أبوها بلهجة خطيرة :

— « إن فى صدرك الآن سرًّا من الأسرار » . فقالت « ماروسيا » :

— « نعم يا والدى » . ثم أردَف أبوها قائلاً :

— « اذهبى وأخبرى والدتك أن أخَويْك الصغيرين قد غلبهما

النُّعاس فناما على هذا المَقْعَد » .

ومضت « ماروسيا » إلى الباب ، ولم تَكَدْ تَمُدّ يدها لتفتحه حتى توقفت فجأة دونه ، فقد طَرَقَ مسْمَعَها صَدَى جَلَبَة[1] بعيدة ، كأنها أصوات حوافر[2] خيل تخبّ قادمة فى اتّجاه المنزل ، ثم ما لبثت تلك الجَلَبَة البعيدة أن وضحَتْ سريعًا وكبرت واختلط فيها الصُّراخ وصَهيل الخيول .

وعلى الأثر فُتِحَ باب الغرفة ، ودخلت منه ربّة البيت ، وقد غاض لون وجهها ، وبدا أبيض كالشَّمْع فقالت جَزِعَة مضطربة :

— « هم جماعة من جنود الأعداء الغاصبين ، بل لعلّهم كتيبة أو فرقة . . . لقد وصلوا إلينا واقتربوا من المنزل » . فقال « دانيلو » :

— « يجب ألاّ نفقد رِباطة جأشِنا » .

وكان رسول « ستش » قد نهض واقفًا ولكن فى غير ما عجلة ولا اضطراب ، وحذا الباقون حَذْوَه صامتين مستسلمين إلى التفكير .

وعَمَدَت أمّ « ماروسيا » إلى الباب فأقفلته ، وأسندت ظهرها إليه ، وانتظرت أوامر زوجها . أمّا « ماروسيا » فقد وقفت إلى جانب أمّها هادئة ساكنة ، وإن تكن شفتاها قد عَلَتْهُما صُفْرة شديدة .

وقطع « دانيلو » حَبْل الصمت فقال :

---

(١) صدى الجلبة : اختلاط الأصوات والصياح .

(٢) حوافر : جمع حافر . والحافر للدابة بمنزلة القدم للإنسان .

— « عليك يا " فورشيلو " وعليك أنت يا "كروك" أن تتظاهرا بالنوم ، أما زوجتى فيجب أن تتظاهر بأنها مشغولة بالخياطة ، وأمّا أنا فغائب عن المنزل ، فقد ذهبت أزور بعض الأصدقاء ، وفى أثناء غيابى حضر " فورشيلو " و " كروك " ليساومانى على شراء عدد من الثيران ، ولعلّهما أفْرَطا فى الشراب فناما ، إنهما ينتظران أوْبَتِى[1] . . . المهمّ أن نشغل هؤلاء الجنود بالحديث كَسَبَبًا للوقت » .

ثم التفت إلى رسول « ستش » وقال :

— « إن القادمين إلينا سيترجّلون[2] عند باب المنزل ، فتعالَ واتبعنى ، فى المطبخ نافذة تفضى إلى الحديقة » .

ولما خرج الأب من الغرفة تبادل وابنته النظرات .

حَدَثَ كل هذا فى سُرْعة فائقة كما لو كان ذلك التّرتيب مُعَدًّا منذ وقت طويل ، فما هى إلاّ لحظات حتّى استغرق الرجلان فى سُبات عميق ، مستلقِيَيْنِ إلى مَقْعَد طويلٍ قريبٍ من المقْعَد الذى يَرْقُدُ عليه الطِّفلان ، وانهمكت ربّة البيت بالخياطة ، وتوارى « دانيلو » والرّسول .

وسُمِعَ عندئذ صوتٌ أجَشّ[3] يقول :

— « ترجّلوا واطْرُقوا الباب » . فانهال الجند على الباب يطرقونه

---

(١) اوبتى : عودتى . (٢) ترجل : نزل عن ركوبته فمشى .

(٣) الأجش : الغليظ الصوت من الإنسان .

طرقًا شديدًا » .

فاقتربت ربّة المنزل من النافذة ، وفى يدها قطعة النّسيج التى تخيطها ، وقالت بصوت هادئ لا يخالطه اضطراب ولا رَهْبَة :

— « مَن الطارق ؟ ماذا تريدون ؟ »

فكان الجواب عن سؤالها ضَرْبةً حطّمت زُجاج النافذة ، فابتعدت المرأة قليلاً لتتفادى شظايا الزّجاج المتطايرة ، ثم رأت بعد ذلك رجلاً من التّتَر ضَخْم الجسمان ، طويل الشاربَيْن محتقن الوجه من السّخْط والغضب ، يقترب من النافذة ويُطلّ من خلال الزّجاج المحطم ويسرّح نظراته الساخطة المستريبة فى كل زاوية من زوايا الغرفة ، حتى إذا رأى ربّة البيت تنظر إليه متعجبة مدهوشة صاح فيها مهدّدًا وهو يقول :

— « لماذا تنظرين إلىّ ؟ ولماذا لا تفتحين الباب ؟ أتريدين أن نحطّمه ؟ » .

فقالت ربّة البيت وهى تحاول أن تهدئ من رَوْعه :

— « إن طفلىّ نائمان — والحقّ أن الطفلين البريئين كانا يغطّان فى النوم — وهناك رجلان نائمان أيضًا فتَقلّل يا سيدى من ضجتك وصُراخك » .

فقال الضابط وقد ازداد غيظه وحنقه :

— « افتحى الباب أيتها البلهاء » .

وبدا على زوجة « دانيلو » أن الخوف قد سَمّرها فى مكانها فلم

تتحرّك ، وكان الباب تتهاوى عليه الضّربات الشديدة ، ولكنه كان لا يزال ثابتًا لا يتزعزع ، فبدا للضابط أن يدخل البيت من النافذة المحطمة ، فأدخل منها نصف جسمه ، وشَهَرَ سلاحه الناريّ ، وسَدَّد فوّهته إلى صدر ربّة المنزل وقال :

— « إذا لم تفتحى الباب فى ثوانٍ معدودات ، فسوف أقتلك كما يُقْتَل الحيوان الأجْرَب » .

فخطَتْ زوجة « دانيلو » خطوة واحدة إلى الباب ، فلو رآها راءٍ فى تلك اللحظة لقال إنها تمثال من الحجَر يتلقّى الأوامر ولا يفهمها » .

فصاح الضابط فى سُخْط ما بعده سُخْط :

— « سَحْقًا لك أيتها المرأة اللعينة ! » .

فاقترب عندئذ من النافذة ضابط آخر وقال :

— « أصْغِى إلىّ أيتها المرأة . إن النار كفيلة بتحطيم الباب والمنزل معًا ، فإذا لم تفتحى الباب على الفَوْر فلن يخرج أحد من المنزل حيًّا » .

ولاحَ على وجه ربّة المنزل أنّ الذّعْر قد أصابها بِمَسٍّ من جنون ، فهُرِعت[1] إلى الباب تعالج فتحه ، ولكن لا المفتاح أطاعها ولا القُفْل قد لبّىّ رغبتها ، وهى لا تفتأ بين محاولة وأخرى تصيح قائلة :

— « سَمْعًا وطاعة . سأفتح الباب أيها السادة : ألا ترونى أحاول

(١) هرعت : لجأت فى خوف .

فتحه . تَعْسًا لهذا القفل الذى سيفقدنى رَشادى ! يجب علىّ أن أغيّره حالما يطْلُع الصباح . . . » .

وبعد جهد غير قليل فُتِحَ الباب . . . ويعْلَم الله كم استغرق ذلك من وقت . . . وعلى الفَوْر اندفع الجنود والضّابطان إلى المنزل ، وأخذوا يطوفون بكل ناحية من نواحيه .

وكان الطفل الصغير قد استيقظ مذعورًا ، فأخذ يصيح ويبكى ويملأ البيت صُراخًا وعَويلاً ، أما أخوه الأكبر فكان يجيل النظر فى القادمين ساكتًا ساكنًا ، فلما طال صُراخ الصغير نَهَرَه الضابط الثانى قائلاً :

— « هلاَّ سكتَّ أيها الملعون ! » .

ولكن الطفل لم يحْفِل بهذا الزَّجْر فتابع صُراخه ، فاقترب منه الضابط المحتقن الوجه ، ورَكَله[1] بقدمه فتدحرج على الأرض وسكت من شدّة الخوف .

وأتْبَع هذا الضابط رَكْلَته بركْلَة أخرى هَوَتْ على جسم « كروك » فصَحا الرجل وأخذ يَفْرُك عينيه من شدّة النُّعاس .

ثم صَحا « فورشيلو » بنفس الوسيلة التى صَحا بها صديقه ، وطَفِقَ يُدير بصَره فيما حوله وهو مستغرب أشدّ الاستغراب من عُدْوان هؤلاء الجنود عليه ، ثم أخذ يحدّث الضابطين ويتمتم بكلمات غير مفهومة ، ويغمزهما بعينيه غَمَزَات الودّ والصّداقة مازحًا هازلاً ،

(١) ركله : ضربه برجل واحدة .

وانتهى به الأمر إلى أن يرتمي ثانيةً على مقعَدِه وهو يقول :

— « خيرٌ لنا أن ننام » .

وحدّق إليه الجنود واحداً بعد آخر فقال بعضهم « إنه هو » وقال آخرون « كلاّ » . ليس هذا هو الرجل المنْشُود — وقال غير هؤلاء وأولئك : « ويل لهذا الشعب فما فيه إلا الخَوَنة المارقون ! »

فصرخ فيهم الضابط المحتقن الوجه محتَدّاً وقال :

— « سكوت » !

ثم طلب من ربّة المنزل بغلاظة وفظاظة أن تقترب منه فاقتربت فقال لها :

— « من أنتِ » .

— « أنا زوجة دانيلو شابان » .

— « أين زوجك » ؟

— « ذهب يزور صديقاً له » .

فأشار الضابط بسَوْط كان في يده إلى الرجلَيْن قائلاً :

— « وهذان . هذان السكّيران العِرْبِيدان (١) ، هذان الكلْبان مَنْ هما ؟ »

وألْحَقَ إشارته بضربة سَوْط شديدة أهْوَى بها على كَتِف « كروك » وبضَرْبة أخرى سدّدها إلى وجه « فورشيلو » وخطا بعد ذلك

---

(١) العربيد : السيء الخلق .

خُطْوَةً نحو ربّة المنزل وشرَر الوعيد يتطاير من عينيه وقال :

— « تكلّمى وإلاّ . . . » .

فرجعت المرأة خطوات إلى الوراء جازعةً مرتعبة ، كمن يتّقى هَجْمة وحشٍ مفترس ، ثم تغلبت على اضطراب نفسها وقالت :

— « هما جاران لنا يا سيدى ، جاءا يشتريان من زوجى بعض الثيران ، فلما علما أنه غائب عن المنزل مكثا ينتظرانه فغلبهما النُّعاس فناما » . وأمّن « كروك » على كلامها فقال :

— « نعم يا سيّدى ، لقد جئنا نبتاع ثلاثة ثيران من صديقنا "دانيلو" فلم نلقه فى المنزل فاضطُررنا إلى انتظاره ، لأننا وعدْنا أن نسلّم الثيران صباح غدٍ إلى مَنْ وكّلنا بشرائها ، فانظر يا سيدى أىّ وقتٍ أضعْنا ؟ فعسى غيبة صديقنا "دانيلو" لا تطول فوق ما طالت ! » .

فقاطعه الضابط المحتقن الوجه وصاح فيه متوعّداً :

— « كفى . عدّ عن هذا الهُراء[1] أيها الخبيث . . . إنى أعرف قيمة هذه السّذاجة التى تتظاهرون بها أيها الخونة ! » .

ثم التفت إلى جنوده وقال :

— « أيّها الجند ! أوثقوا هذين الماكرين » .

وفى طَرْفة عين ، شدّ الجند وثاق الرجلين ، وكتّفوهما تكتيفاً منعهما من كل حركة . ودخل فى تلك اللحظة ربّ المنزل ، فرآه الضابط

(١) الهراء : الكلام الكثير الفاسد لا نظام له .

المحتقن الوجه فصرخ فيه قائلاً :

ـ « وأنت مَنْ تكون ؟ وكيف تركوك تدخل هذه الغرفة ؟ » .

فقال « دانيلو » بعد إذ حَيَّا الضابط تحية جميلة :

ـ « أنا صاحب هذا المنزل يا سيّدى ! أفتريد أن يمنعنى الجند من دخول بيتى ، ويحرمونى شرفَ التّرحيب بك أيها الضيف الكريم ؟ » .

فصاح الضابط فى رجاله قائلاً :

ـ « ضَعُوا الحُرّاس على الباب ولا تسمحوا لأحد بدخول المنزل ولا الخروج منه . . . أسمعتم ما أقول ؟ »

ثم وجّه الكلام إلى « دانيلو» فقال :

ـ « إذا كنتَ حريصًا على حياتك ، فأجب عن السؤال الذى سأطرحه عليك جوابًا واضحًا صريحًا ، لا تردُّد فيه ولا مواربة ، أما إذا عَمَدْتَ إلى التَّمْويه والتضليل ، فسأحيلك إلى رَماد ، فافهم كلامى على حقيقته ، وثق أنى منفِّذ وعيدى ، فقل لى إذن : أين قوزاق " ستش " . . . » . فقال « دانيلو » فى هدوء ودهشة :

ـ « " قوزاق ستش " ؟ ... هذه أوّل مرّة أسمع بهذا الإسم ، فلست أعرف أحدًا يُسَمَّى " قوزاق ستش " . فاحتدم الضابط غيظًا وقال مزمجرًا :

ـ « اخْدَع سواى بهذا الكلام، أفتُريد أن تُدْخل فى رُوعِى[1]

(١) الروع : بضم الراء ، الذهن والعقل .

أنك لا تعرف الأبالسة الذين يحركونكم ويزيّنون لكم التمرّد والعصيان ؟ فلو جَهِل جنودى اسم رئيسهم ، لجهلتَ أنتَ هؤلاء الناس ؟ فهذا القوزاق قد اخترق نطاق الحصار المضروب على الجزيرة وجاء إلى هذا الإقليم ، ودخل منزلك فأين هو ؟ أجِبْ على الفور وإلاّ جعلت منزلك طُعْمة للنار وشوَيْتُك عليها أنت وزوجتك وأطفالك » .

فقال « دانيلو » :

— صدّقنى يا سيدى أنى ماسمعت قطّ بهذا الرجل الذى سَمَّيتَه » .

فقال الضابط :

— « إذن فأنت تأبَى أن تجيب . . . حسن . فلا تلومنّ إلاّ نفسك » .

ثم استدار إلى ناحية « كروك » و « فورشيلو » وقال :

— « وأنتما أيّها الخبيثان ، ألا تعرفان القوزاق الذى أتحدّث عنه . . . »

وهنا اقترب من الضابط المحتقن الوجه زميله الضابط الثانى وكان قد بقى جالسًا طول ذلك الوقت فقال :

— « إنك لتدهشنى يا عزيزى ! فلماذا تحمّل نفسك كل هذا العَناء ؟ أفيعزّ علينا أن نعثر على ضالّتنا ؟ لئن هَرَب منا إنّ هَرَبه لن يطول ، فسوف نُمْسك به ولو تعلق بأذيال السّحاب أو انشقّت الأرض وابتلعته ، فَعَدَّ الآن عن هذا ، ولا تَنْس أننا نسابق الرياح منذ هذا الصباح بلا طعام ولا شراب ، فمِعَدُنا خالية خاوية ، فهلاّ

تناولنا طعام العشاء فى هذا المنزل الجميل ، ثم استأنفنا بعد الرِّىَّ والشبَع مطاردة المجرمين ! » . فقال الضابط المحتقن الوجه بصوت مختنق :

— « نِعْمَ الرأى رأيك . . . فلنتناول طعام العشاء » .

والتفت إلى « دانيلو » وقال :

— « أسمعتَ أيها الرجل ؟ هات ما عندك من طعام ، وضَعْه فوق هذه المائدة ، وحَذارِ أن يستغرق ذلك أكثر من دقيقتين . . . أجل دقيقتين اثنتين » . وضرب المائدة بقبضة يده ضربةً هزّت أركان المنزل .

فما إن سمع « دانيلو » كلام الضابط حتى قال لزوجته :

— « أسرعى يا عزيزتى فى تلبية رغبة الضيف العظيم » .

فخرجت الزوجة وهى تحمل بين ذراعيها طفليها الصغيرين ، وعادت بعد قليلٍ مُثْقَلةً اليدين بألوان الطعام ، صامتةً هادئة رابطةَ الجأش[1] ، تُخْفِى ما يساور فؤادها من همّ وقلق .

وكان « فورشيلو » و « كروك » واقفَيْن فى زاوية من زوايا الغرفة ، مربوطين بالحبال الغليظة فى حين وقف « دانيلو » فى زاوية أخرى متكتّفًا ، وكان الجند قد تَوارَوْا من الغرفة إلاّ واحداً عُهِدَ إليه فى حِراسة الباب ، فجلس الضابطان إلى المائدة ، وسيف كلّ منهما متدلٍّ إلى جانبه فوضعا سلاحيهما الناريّ فوق المائدة ، وأقبلا على الطعام

---

(١) الجأش : القلب والصدر . يقال رابط الجأش أى شجاع .

يَزْدَرِدانه[٢] فى نَهَمٍ[٣] شديد ، ويتبادلان الحديث ضاحكين مسرورين .

أما « ماروسيا » الصغيرة فلم تكن بين الحاضرين .

* * *

كانت السماء فى تلك الليلة جميلة مرصّعة بالنجوم ، وكانت « ماروسيا » عند رجوع أبيها قد تسللت من الغرفة وخرجت منها خروج الظلّ الخفيف .

أتُراها استجابت لنظرةٍ من نظرات أبيها التى لا يفهمها سواها ، أم أطاعت وحى نفسها فمضَتْ تحاول أن تقوم بأمْرٍ من الأمور ؟ وسواء أكان هذا أم ذاك فقد غادرت الغرفة دون أن يلمحها أحد ، ومرّت مرور الطَّيْف بين الجند والخيل وسارت إلى الحديقة .

فلمّا بلغتها وقفَتْ تحت شجرة من شجرات الكرز ، ووضعت كفَّها فوق قلبها كأنها تريد منعه من الخَفَقَان . كان قلبها الصغير يخفق فى ضَرَبات متلاحقة ، وكان رأسها نَهْبًا للوساوس والأفكار .

كانت الطفلة المسكينة حزينةً حتى الموت ، ولكنها لم تكن متهالكةً مخذولة مضيّعة النَّفْس ، وكان إيمانها بالخلاص شديدًا وثيقًا دون أن تعرف مصدر ذلك الخلاص .

ولقد مرّت نَسَمات الليل على وجهها ، فأنعَشَتها وخفّفت من

---

(٢) ازدرد : بلع وأسرع . (٣) النهم : الشره والإفراط فى الشهوة .

خفقان صدرها ، ثم أرهفت الطفلة السمع قليلاً لتعرف أشعر القوم بفرارها أم لم يلحظوه ؟ فترامت إليها أصوات الجند مصطخبة مختلطة ولكن فى نسق رتيب ، وطرقت مسمعها كذلك ضحكات الضابطين ، فهدأ روعها واطمأنت إلى أن الجند والضابطين فى شغل شاغل عنها . يا للطفلة المسكينة . ماذا تراها فاعلة ؟ وأية مهمة خرجت تؤديها ؟

استجمعت « ماروسيا » قواها وخواطرها ، وعلق نظرها بهذا المنزل الذى يجمع كل من خصتهم بالمحبة والإجلال .

وكان كل شىء هادئاً تحت الأغصان المزدهرة ، فخطت بضع خطوات إلى الأمام ثم اتجهت إلى الشمال ودخلت الغابة فى رفق وحذر ، فما شعرت بحس ولا حركة ، فرجعت أدراجها[1] وسارت يميناً إلى منحدر الوادى ، مرهفة سمعها ، حابسة أنفاسها ، مسرحة بصرها فى كل جهة وناحية ، تسائل الطيوف والأشباح .

وبقيت فترة من الوقت مستندة إلى شجرة متهدلة[2] الأغصان ، ملتفة الورق ، كانت تحميها بل تخفيها عن الأنظار ، وكانت كف النسيم تهزهز غصون شجر التفاح ، وتنثر زهره الأبيض فوق العشب الأخضر ، فكانت « ماروسيا » تنظر هذا وتقول فى نفسها : « هذا الزهر المتناثر ما أشبهه بالثلج إذ ينهمر » .

وقفت « ماروسيا » تنصت إلى كل حركة وهمسة ، وخشيت

---

(١) رجع أدراجه : عاد من حيث جاء . (٢) متهدلة : متدلية

أن يحول حفيف الأشجار دون سماع الحركة التى تتوقعها وترقبها ، وأطلت برأسها تحدق إلى كل شىء حولها ، حتى وقع نظرها على شجرتين متجاورتين لمحت بينهما . . . ماذا تراها لمحت ؟ أشبحاً من الأشباح ؟ كلا . إنه شخص الزائر الصديق الذى رحبوا به منذ قليل فى المنزل ، إنه القوزاق النبيل الشجاع الذى يتألم له أبوها وأمها ... والذى يحلو لها على غرار (١). والديها أن تركب المخاطر من أجله ، بل من أجل مهمته مادام يعمل لإنقاذ الوطن .

تحرك ذلك الشبح بل ذلك الشخص ، وانسل من خلال غصون الشجر انسلال الحيات ، باحثاً ولا شك عن الدرب الخفى الذى يوصل سالكه إلى النهر .

جرت « ماروسيا » إليه ، وجد هو فى سيره ، حتى وصل إلى سياج يحول بينه وبين النهر ، وكانت هناك فى موضع من الضفة ، شجرة متدلية الغصون إلى النهر ، تحجب تحتها زورقاً صغيراً يتراقص على الماء ، فهم رسول « ستش » بأن يجتاز السياج (٢) وينحدر إلى النهر ، فشعر بكفين صغيرتين تمسكان بذراعه ، وسمع صوتاً ناعماً يقول له فى شبه الهمس : كلا . كلا . لا تركب الزورق ، إن النهر مرآة تعكس صور ما عليها حتى إلى البعيد من العيون .

---

(١) الغرار : المثالى الذى تضرب عليه النصال لتصلح . ومن هذا المعنى قولهم : هم على غرار واحد أى متماثلون . (٢) السياج : ما أحيط به على شىء كالكرم والنخل .

فالتفت شَتشقيك وراءه ، فعرف الطفلة الصغيرة بنْت مُضيفه « دانيلو » فقال لها مبتسمًا متودّدًا ، كما لو كان رآها فى ظَرْف هانئ سعيد :

ـ « ماذا تعملين هنا يا ابنتى ؟ وما الذى أتى بك إلى هذا المكان ؟ »

فقالت « ماروسيا » :

ـ « جئت أصحبك فى رحلتك ، وأدلّك على الطريق ، ولكن النهر لا يقودك إلى مدينة " شيجيرين " ولقد فكّرت فى وسيلة تبلغك غايتك ».

فقال لها "شتشقيك" :

ـ « وما هى ؟ . كلّى آذان مصغية إليك » . فقالت له :

ـ « لنذهب أولاً إلى هذا الجدار العتيق ، فهو كفيل بأن يخفينا عن الأنظار » .

فمشَيا معًا إلى الجِدار ، حتى إذا ما بلغاه قالت « ماروسيا » :

ـ « إن لوالدى فى هذا السهل المنبسط كوخًا وإصْطبْلاً يترك فيه الثيران أيام الحَصاد ، فلا يُضطَرّ إلى أن يعود بها كل مساء إلى المنزل ، وعند باب الكوخ مركبة موسوقة[1] بالعَلَف كان والدى سيأتى بها صباحَ غد ، وفى الإصطبل ثيران كثيرة ، والمسافة إلى ذلك المكان زهاء[2] ثلاث ساعات ، فلو وصلنا إليه ، استطعت بل استطعنا رَبْط

---

(١) موسوقة : محملة .

(٢) زهاء : مقدار .

ثورين كبيرين بالمركبة فتختبئ أنت تحت العلَف ، وأقود أنا المركبة إلى منزل السيد ، " كنيش " » .

والسيد « كنيش » صديق لوالدى ولجميع أصدقائه ، وكثيراً ما زارنا وتحدّث طويلا مع الآخرين ، فسوف أنْهِى إليه بكل شىء ، فإذا لم تشأ فسوف ألتزم الصمْت ، ولكننى سأجتهد فى أن أقوم ... »

وسكتت متحيّرة لا تدرى ماذا يجب أن تعمل فى تلك الحال ، ولكنها تابعت كلامها قائلة :

ـ « . . . فى أن أقوم بكلّ ما تطلب منّى . . . أجل سأقوم بكلّ ما تطلب » .

٢

كادَ الليل يَنْقَضِي فهبّت نَسَمات الفجر تبشّر بقدوم الصباح ، وتمايلت أعواد القصب على الضِّفاف ، فسُمِعت لها وَسْوَسَة كأغاريد[1] العصافير ، واندفعت مياهُ النهر فى مَجْراها تلطم مايعترض سبيلَها من صخور ، وتنحدر إلى الوادى فى هَدير ضخْم عظيم ، فقالت « ماروسيا » :

— « يجب أن ننعطف الآن إلى الشّمال » .

وبعد قليل ، كانت هى ورسول « ستش » قد دخلا السهل ،

(١) الأغاريد : جمع أغرودة ، غناء الطائر .

وكان الهاربان حتى ذلك الحين ، قد مشيا والنهر تخفيهما الأشجار القائمة على ضفته .

ووقفت « ماروسيا » و « شتشفيك » ، يستنشقان ملء رئتيهما هواء السهل الناعم المنعش ، فقالت « ماروسيا » :

— « انظر يا سيدى إلى النقطة السوداء هناك ، إنها الإصطبل الذى حدثتك عنه ، فعلينا أن ننعطف مرة أخرى إلى الشمال لنصل إلى إصطبل الثيران » . فقال « شتشفيك » :

— « لننعطف مرة أخرى إلى الشمال » .

وكان السهل ممتداً أمامهما لا يدرك الطرف[1] آخره ، وقد قامت فى جنباته أكوام عالية من الكلأ[2] ، جز حديثاً وصفف كومة بعد أخرى ، فصعد « شتشفيك » فوق كومة منها ، وأرسل بصره يرود الأفق البعيد فقالت له « ماروسيا » :

— « من الخطأ أن تقف فوق هذه الأكمة ، فأنت رجل مديد القامة ، فسوف يراك الرَّاؤون ولو من بعيد كما يرون قبب النواقيس » .

وكان الهدوء ممدود الرواق على ذلك السهل ، فأشار « شتشفيك » إلى « ماروسيا » يدعوها إليه لتشاطره النظر ، وانثنى يعاونها على الصعود ، ولكن الطفلة كانت قد تسلقت فى طرفة عين كومة العشب ، فقال لها :

— « كأن لك أجنحة تطيرين بها » .

---

(١) الطرف : العين .   (٢) الكلأ : العشب رطبه ويابسه .

فقالت الطفلة فى زَهْو وخُيَلاء :

— « إن أبى يسمينى السِّنْجاب الصغير » .

وأخذت هى كذلك تُحدِّق إلى الأفق ، ولكن تحديقها كان إلى جهة واحدة ليس إلا . . . إلى وجهة المنزل الذى يقيم به أهلها فقالت :

— « أترَى ذلك المنزل ، أتراه ؟ انظر إليه نيابةً عنى ، فبصرى حَسِير [1] الآن . . . يلوح لى أن كل شىء هادئ فيه » .

فقال « شتشقيك » :

— « نعم . نعم . كل شىء فيه يشير إلى الراحة والاطمئنان » .

فرفعت الطفلة إلى السماء عينين مبلَّلتين بالدموع وقالت :

— « احفظ يا رب أبى وأمى وأخوَىّ . . . » . فقال « شتشقيك » :

— « هنيئًا لأبيك وأمك على أن رزقهما الله ابنة مثلك » .

نزل « شتشقيك » والطفلة من كومة العشب هادئين نشيطين ، ومَشيا قليلاً حتى وصلا إلى الكوخ والإصطبل فقالت « ماروسيا » :

— « هنا . ساعِدْنى على رفع خشبة الباب . ها هى ذى الثيران فهل تراها » .

فقال « شتشقيك » :

— « نعم أراها . إنها جميلة قوية » .

وكان فى مقدمة الإصطبل ثوران جاثمان على الأرض كأنهما جبلان

---

(١) حسر بصره : ضعف وكل .

ضخمان ، فأخذت « ماروسيا » تمسح بكفّها الصغيرة رأس كل ثور ، فجاوبها الثَّوْران بخُوار خفيف عبّرا لها به عن شكرهما وثنائهما .

وكانت المركبة الموسوقة بالعلف غير بعيدة ، فسارت « ماروسيا » إليها بالثَّوريْن ، وتبعها « شتشقيك » ساكتًا ، فلما بلغتها قالت :

— « والآن لنربط الثَّوْرَيْن إلى المركبة . »

فتم لها ما أرادت وقالت تخاطب رفيقها :

— « هيّا عجّل . مالك تنظر إلىّ هذه النظرات ؟ ! » .

فقال « شتشقيك » :

— « إنك طفلة صغيرة يا ابنتى ، إنك تُشْبهين العصفور المغرّد فى جوانب هذا السهل ، وتريدين أن تقومى بجلائل الأعمال ! »

وكان الرجل على صواب ، فقد كانت الطفلة الصغيرة ، فى وسط ذلك البساط الأخضر ، وبالقرب من الثَّوْرَيْن الضَّخْمين والمركبة الكبيرة ، وإلى جانب ذلك الرجل العملاق ، مخلوقة لطيفة نحيفة لا تكاد تبدو ولا تبين . فتنهدت « ماروسيا » وقالت :

— « بودّى لو كنت فتاة كبيرة . . . آه . هذا منديل أمى . سأشُدُّ به رأسى كما تفعل النساء العجائز ، فأبدو امرأة طاعنة فى السّنّ » .

فتعصّبت[1] بمنديل أغبَرَ ، غطّى شعرها الأشقر ، واسترسل على كتفيْها الورديّتين ، ثم أخذت ترمق الرجل العملاق فى جلال وإعجاب .

(١) تعصبت : شدت العصابة وهى ما يعصب به من منديل ونحوه .

فنظر إليها « شتشقيك » فى دَعة وحَنان وهو يبتسم ، وبقى لحظة لا يتكلم أو لا يستطيع أن يتكلّم ، فلما فتح فاه للكلام ، كان صوته منخفضًا بل منخفضًا جدًّا ، كأنه صوت أحد سواه فقال :

ـ « أتعرفين الطريق يا " ماروسيا " » ؟فقالت « ماروسيا » :

ـ « أعرفه كلَّ المعْرِفة ، فيجب أن نَسير فى اتجاه مستقيم حتى نصل إلى البحيرة الصغيرة فإذا وصلنا إلى البحيرة الصغيرة ، انعطَفْنا إلى اليمين ، ومتى انْعَطفنا إلى اليمين ، استطعنا من فوق تَلّ هناك أن نرى منزل السيد " كنيش "، ومن منزل السيدّ "كنيش" يمكن الوصول إلى مدينة " شيجيرين" بلا أدنى مَشقّة وإن كانت الشُّقّة بعيدةً فطالَما سمعت السيدّ "كنيش " يقول لأبى :

ـ « يستطيع كل واحد أن يبلغ مدينة " شيجيرين " من هذا الطريق ، اللَّهُمَّ إلا إذا كان غبيًّا بليدًا » .

توقّع رسول « ستش » أن يكون العدو الزّاحف إلى المدينة ، قد سدّ المنافذ والسُّبُل إليها ، ولم يَغْفل حتى عن ذلك الطريق الذى تشير إليه « ماروسيا » فلا بُدَّ إذن من اختراق معسكر العدوّ والاستهداف للأخطار ، ولكنه رجا أن يظفر من السيّد « كنيش » هذا برأى يُعينه على بلوغ مُراده فسأل « ماروسيا » :

ـ « أتعرفين هذا الذى تسمينه السيد " كنيش " ؟ ».

ـ « نعم أعرفه فهو كثير الاختلاف[1] إلى منزلنا » .

ـ « أتظنين أنه يستقبلك استقبالاً حسنًا ؟ »

ـ « لست أدرى ، ولكنى أتوقع منه هذا » .

ـ « هَبِيه أساء استقبالك » .

ـ « لن يخونَنا مع ذلك . إنه صديق . . . لا . لا . إن أصدقاء أبى لا يمكن أن يكونوا خَوَنَة » .

« فتابع « شتشقيك » أسئلته وهو يحدّق إلى الطفلة الصغيرة :

ـ « أتعرفين يا " ماروسيا " أن " أكرانيا" مملوءة الآن بالغُرَباء والجنود ، وبمن لا رحمة فى قلوبهم ولا شَفقة ؟ أتعرفين أننا لن نلقى فى مسيرنا إلا الأعداء ، وأننا سنتعرّض لطلقات النار وضرَبات السيوف والخناجر ؟ أتعرفين أن الدم يسيل فى كل مكان من هذه الناحية ؟ أتعرفين كل هذا ؟ » فقالت « ماروسيا » :

ـ « أجل، أعرف ذلك » . ومضى « شتشقيك » فى كلامه وقال :

ـ « إن العيون الشِّرِّيرة سوف تتجسس عليك . إنهم سيطرَحُون عليك الكثير من الأسئلة ، وكل كلمة منها فَخٌّ ينصبونه لك ، فإن أخطأت فى الجواب ، أو بدَتْ منك إشارة أو حركة تبعث على الريبة ، وإن تكلمت أو احْمَرّ وجهك أو ارتجفت قليلاً ، ضاع علينا كل شىء ، أتعلمين هذا ؟ » فقالت « ماروسيا » بلهجة الواثق :

---

(١) اختلف إلى المكان : تردد .

— « لن أخطئ فى الجواب ، بل سوف أجيب عن كل سؤال بحذق ومهارة فلست خائفة » .

فقال « شتشقيك » مُمْعِنًا فى وصف الأخطار التى ستُحْدِق بهما :

— « قد يكون الموت يا صغيرتى خاتمة مَطافنا » . فقالت « ماروسيا » :

— « كلاّ . لن نموت إلاّ بعد أن نَفْرَغَ من مهمّتنا ، يجب أولاً أن تصل أنت إلى مدينة " شيجيرين " ، فإذا حقّقتَ غرضك ، وكان علىّ أن أموت ، مِتُّ مستريحةَ البال غير خائفة من الموت . . . ولكن يجب أولاً أن تصل إلى مدينة " شيجيرين " أجَلْ يجب هذا » .

فلم يُحِر « شتشقيك » جوابًا ، وبعد صمت قصير قال لها :

— « اعلمى يا " ماروسيا " أننا سنقابل الأعداء ، وأن الجنود قد يعتقلونك ويستجوبونك ، فإذا اقتربوا من المركبة رَغْبةَ أن يفتشوها ، فكونى هادئة الأعصاب ، ولا تضطربى اضطرابَ الحجلة عندما ترى أحدًا يقترب من عُشّها » .

— « إنى أفهم ما تقول . يجب . . . يجب أن أكون على مثل شجاعتك وسأكون » .

— « فإذا سألك أحد إلى أين أنت ذاهبة ، فقولى إنك ذاهبة إلى مزرعة السيّد " كنيش " لتسليمه هذا العَلَف الذى اشتراه من أبيك . أفهمت ؟ » .

— « نعم . فهمت » .

— « فإذا وصلنا سالمين إلى منزل السيّد " كنيش " فسوف يخفّ إلينا وعندئذ تقولين له : ما أجْمَلَ القمح فى حقولك ؟ لقد رأيتُه فأعْجِبت به وباونه الأصفر الجميل ويمكن الانتفاع به الآن . إنه كلام طويل يا صغيرتى ، غير أنك تستطيعين حفظه ، ألستُ على صواب فيما أقول ؟ » . فقالت « ماروسيا » :

— « نعم يا سيدى لقد حفظته واستظهرته[1] فاسمعه منى ».

وأعادت الطفلة الصغيرة على مسمع « شتشقيك » تلك الجملة الطويلة ولم تَنْس منها كلمة واحدة . فقال لها :

— « إنك كَنْز صغير يا ابنتى . . . والآن هيّا نسرع فيما يجب » .

وصعد « شتشقيك » إلى المركبة واستحدث فى أكوام العَلَف ثَغْرة كبيرة اختبأ فى داخلها ، وقفزت « ماروسيا » إلى مكان السائق فجلست فيه ، وأخذت تحثّ الثورين على المَسِير ولم يَخْلُ صوتها فى أول الأمر من بعض الارتجاف ، فتحرّك الثوران وسارا بتلك المركبة الثقيلة ، وهى تترنّح قليلاً ذات اليمين وذات الشمال .

وبدأت خطوط الفجر الورديّة تلوح فى الأفق وتُبدّد عَتَمَة[2] الليل ، فأخذت « ماروسيا » تنظر إليها تارة ، وإلى قطرات النَّدى المتلألئة فوق الأعشاب تارة أخرى .

---

(١) استظهر الدرس : حفظه وتلاه بلا كتاب .

(٢) عتمة الليل : ظلمة الليل .

ومشى الثوران مَشْيًا وئِيدًا[1] ، وكان بودّ « ماروسيا » لو كانت لهما أجنحة فيطيرا بها إلى المكان المنشود .

وكان كل شيء ساكنًا هادئًا فى تلك البُقْعة ، لا يعكّر صفاء هدوئه وسكونه ، إلا صَوْت طَلْق نارىّ يمزّق أحشاء السكون حينًا بعد حين ، ويُهيب بالحرّاس إلى اليقَظة والحذَر . فما جزعت « ماروسيا » من تلك الأصوات المتفجرة ، وإنها لأصوات كانت توقّعتها ورصدَتْها فى حسْبانها .

على أنها مع هذه الشجاعة التى أرادت أن تتغلب بها على الخوف والقلق ، لم تكن تستطيع أن تمنع قلبها من الخفقان ، ولا أن تُجنِّب أوصالها الارتعاد ، كلما سمعت حركة غير منظورة ، أو صوتًا يخرج عن نِطاق ما حسبت وقدّرت ، والحق أن اضطرابها لم يكن خوفًا على حياتها ، فقد كانت مُصَممَةً على بذْلها فى سبيل وطنها ، ولكنه كان خوفًا على ذلك الرفيق الذى يعمل على إنقاذ الوطن من براثن الأعداء . وعلى حين غِرّة صاحت تخاطبه قائلة :

— « حاذِر . دارِ نفسك . إنى أرى جماعة مقبلة إلينا » .

وما هى إلاّ دقائق معدودات حتى أحاطت بالمركبة فصيلة من فرسان التَّتَر ، فصاحوا جميعًا فى الطفلة الصغيرة بأصوات مختلفة مُنْكَرة :

---

(١) وئيدا : على مهل وفى تؤدة .

— « إلى أين تذهبين ؟ ومن أين أقبلتِ ؟ ومن أنتِ ؟ »
فقالت « ماروسيا » بصوتٍ حُلْوٍ لطيف :
— « أنا ابنة " دانيلو شابان " » .
فقال لها ضابط من الضباط :
— « قفى ثورَيْك » .
فوقفت « ماروسيا » الثَّورَيْن فقال لها :
— « من أين أقبلت ؟ »
— « من منزلنا » .
— « وأين منزلك ؟ » .
— « غير بعيد من هنا » .
— « وإلى أين أنتِ ذاهبة ؟ »
— « إلى السيد " كنيش " » .
— « ومن يكون هذا السيد ؟ »
— « إنه صديق لأبى ، اشترى هذا العَلَف منه فقدِمْت أسلمه إياه » . فقال ضابط آخر يخاطب الضابط الأول :
— « ألم أقل يا عزيزى إنها مركبة بعض الفلاّحين لا أكثر ولا أقل ؟ أما أنت فترى فى كل أمرٍ من الأمور خَوَنَةً وأسْرَى هاربين » .
فقال له الضابط الأول :
— « أظننت البلاد خاليةً منهم ؟ أوَ أدركك التَّعَب فى البحث

عنهم والجِدّ فى أثرهم ؟ » . فقال الضابط الثانى :

— « ليست هذه أوّل هَجْمة تطلب إلينا القيام بها ، ولكن وراء مَنْ ؟ وراء أشباح ؟ فماذا نصنع بهذه الطفلة الصغيرة لو أسَرْناها ؟ »

ثم خاطب « ماروسيا » قائلاً :

— « كان عليك أيتها الطفلة الصغيرة ألاّ تغادرى مَهْدَك[1] فى هذا الصباح » . فقاطعه الضابط الأول وقال :

— « هذا السَّلَبُ[2] من العَلَف الجميل لا يُحْتَقَر ! » .

والتفت إلى « ماروسيا » وقال :

— « أمَزْرعة السيد الذى تقصدينه بعيدة من هنا ؟ »

— « بعض البُعْد » .

— « ماذا تقولين ؟ أيستغرق الوصول إليها على خطوات هذين الثَّوريْن ساعة أو ساعتين ؟ »

— « ساعتين بل ثلاث ساعات » .

— « أرى إذن أن نَصْحَب المركبة حتى منزل ذلك السيد "كنيش" فإن كان فى حاجة إلى هذا العَلَف اشتراه منا . فهل منزل صديق أبيك أنيق واسع أيتها الصغيرة ؟ وهل هذا الصديق غنىّ ثرِىّ ؟ »

— « يملك بستانًا كبيرًا وكثيرًا من التفّاح » .

— « يا للدّاهية ! ما أرْخَصَ ثمن التفاح فى هذه البلاد ! ولكن هيّا

---

(١) المهد : سرير الطفل . (٢) السلب : ما يسلب ويسرق .

نتحقّق نحن أنفسنا من قيمة هذا الذى يُدْعَى "كنيش" فسوف يرى فى زيارتنا إياه مفاجأة لطيفة سارّة » .

ثم التفت يخاطب « ماروسيا » وقال :

— « استأنفى السير بمركبتك أيتها الطفلة . إلى الأمام » .

فسارت المركبة يحيط بها الجنود من كل جانب .

وكانت « ماروسيا » تنظر إلى تلك الوجوه الصّارمة العابسة ، وهى تفكّر فى وسيلة حكيمة تُنْقِذ بها نفسها وصديقها من ذلك الخطر الجسيم المُحْدِق بهما ، وكانت تَراهم يتبعون المركبة خطوةً خطوة ، كأنهم يستريحون من وَعْثَاء[1] رحلة دمويّة مُتْعِبة ، فقالت فى نفسها : أيَعْرِف هؤلاء الجنود مبلغ الشرّ الذى ألحقوه بنا ؟ إنى أرى وجوه بعضهم حزينة كئيبة ، فلعلّ فيهم مَنْ يكون رحيمًا شفيقًا ، لم يقسُ[2] فؤاده من الحجر الصّلْب ، ولكن لا ، فلو عثروا على الصديق المختبئ لمزّقوه تمزيقًا .

استسلمت « ماروسيا » إلى مثل هذه الأفكار ، فى حين كان الثَّوْران يخبّان بالمركبة خبًّا حثيثًا ، كأنّ وقع حوافر الخيل وصهيلها المتقطّع قد حملاها على الإسراع ، وكان يحلو للجياد القريبة من المركبة ، أن تمدّ أعناقها إلى العَلَف وتنتزع منه بعض ما تصل إليه أسنانها فتعتلفه[3] .

---

(١) الوعثاء : المشقة والتعب . (٢) يقد : يقطع .

(٣) اعتلفت الدابة : أكلت .

وكانت « ماروسيا » ترى هذا فترتعد له فرائصُها[1]، وتَخْشَى أن تنتزع الجياد حزمةً بعد أخرى، فيكشف مخبأ الصديق ويفتضح أمره ...

وأدارت « ماروسيا » نظراتها إلى ناحية الجند ، فرأت واحداً من هؤلاء الجنود ينظر إليها بعناية فائقة ، بل ربّما كان ينظر إليها بحذَر وريبة ، فاضطَربت وأيقنت بالهلاك ولكن قالت فى نفسها :

— « يجب أن أكون مثله » .

فاستعادت شجاعتها ورباطة جأشها ، واختلست النظَر مرّة أخرى إلى ذلك الجندى ، فرأته لا يزال على شأنه يطيل التحديق إليها ، فساءلت نفسها : لماذا سَمَّر هذا الرجل نظراتِه فىّ ؟

فلمّا لم تتوصّل إلى جواب يقنعها قالت فى نفسها :

— « سأنظر إليه أنا أيضًا » .

فتغلّبت على اضطرابها ، والتفتت تحدّق إليه تحديقًا طويلاً .

وكان ذلك الجندى عريض المَنْكِبَيْن ، مفتول الساعدين ، تدلّ قَسَمات وجهه على الصَّرامة والذّكاء ، فدفع جواده إلى الأمام حتى صار على مَقْرُبَة من « ماروسيا » كأنّه يريد أن يتصفح وجهها عن كَثَب[2] ، فلزم الصّمْت أولاً ، ولكنّ عينيه البرّاقتين كانتا

---

(١) الفرائص : جمع فريصة وهى اللحمة بين الجنب والكتف أو بين الثدى والكتف ترعد عند الفزع .

(٢) عن كثب : عن قرب .

تُفْصحان عمّا يجول بخاطره، فكأنهما كانتا تقولان :

— « عجيبٌ أن تقود طفلة صغيرة مثل هذه المركبة الكبيرة ، فمَنْ ذا الذى اختار هذا السّائق النّحيف الصغير ،وتركه يسير وحده فى ظلام الليل ، فى حين أن الحرب دائرة الرَّحَى فى كل مكان ، والطرُق غير مأمونة ؟ »

وقرّر الجندى أخيرًا أن يحدّث « ماروسيا » فقال لها :

— « أ أبوك وأمك على قَيْد الحياة أيتها الصغيرة ؟ » .

— « نعم والحمد لله » .

فأطرق الجندى قليلاً وهو مستسلم إلى التفكير ، ثم أبرقت أسارير وجهه كأنه حلّ لُغْزًا من الألغاز .

وارتجفت « ماروسيا » من رأسها إلى أخمَص قدمَيْها[1]، وخفَق فؤادها حتى لتكاد تُسْمَع دقّاته ، ولكنها قالت فى نفسها : « يجب أن أكون مثله » . فتجلّدت وضبطت عواطفها وسألت الجندى بصوت مرتعش قليلاً ، وهى تحاول أن تُخْفِى ارتعاشَها بابتسامة لطيفة :

— « وأنت ؟ أ أبوك وأمك على قَيْد الحياة ؟ ألك كثير من الأهل ؟ ربما كان لك أبناء ، أذكور هم أم إناث ؟ »

أيقظ ذلك السؤال فى فؤاد الجندى كوامن الذكريات ، فتغير وجهه فجأة ، واستنار بالألاء الحنان ، فلم يَعُدْ ينظر إلى « ماروسيا »

---

(١) أخمص القدم : ما لا يصيب الأرض من باطنها .

تلك النظرات المنطوية على الشكّ والريبة ، بل أخذ يُحيطها بنظرات ملؤها العطف والرحمة والإشفاق ، كأنه رأى فى الطفلة الصغيرة ملامح تذكره بمخلوق صغير بعيد منه يحبه ويهواه ؟ فقال يجيب عن سؤال « ماروسيا » :

— « نعم . لى ابنة » .

— « أكبيرة ابنتك ؟ » فتبسم الجندى وقال :

— « إنها فى مثل عمرك . نعم فى مثل عمرك » .

وحنّى الجندى رأسه ، فلم تجرؤ « ماروسيا » على متابعة أسئلتها ، فتركته يعيش بالخيال مع ابنته .

وكانت القافلة لا تزال تُغذُّ فى السيْر[1] ، فاعترض سبيلَها عُصْفور صحا مبكّرًا وأخذ يسمعها تغريده كأنه يحييّها تحيّة الصباح .

وعلى الأثَر ارتفع صوتٌ من بين الجند السّائرين وراء المركبة ، واندفع يُغَنّى أغنية هذا مطلعها :

— « اُذْكُرِينى يا حَيَاتِى واذكُرِى الحُبَّ القَدِيما »

وكان صوته حُلْوًا جميلاً طَرِبت منه « ماروسيا » ولكن حَدَّث عن دهشتها ولا حَرَج ، عندما رأت الجندى الذى كان يحدّثها منذ قليل ، قد اندفع هو أيضًا يُغَنّى غناء خارجًا من أعماق قلبه .

سكت الجند عند سَماعهم المقْطَع الأول من الأغنية ، ولكنهم

(١) أغذ السير وفى السير : أسرع .

اشتركوا جميعًا فى الغناء منذ المقطع الثانى ، فابتهجت نفس « ماروسيا » على ما كان يُحيط بها من قلق واضطراب ، وحانت منها التفاتة إلى الجندى الذى حدثها ، فرأته قد ازداد حزنًا وكآبة .

وأبصرت « ماروسيا » على جانب الطريق ، بُحيرة صغيرة هادئة المياه ، خضراء الضفاف ، لا يزال ضباب الصباح يُغطى صفحتها بغلالة[1] رقيقة شفافة ، ورأت إلى اليمين دربًا صغيراً متعرجًا ينتهى بالسارى إلى منزل السيد « كنيش » .

وانتشرت أضواء الصباح فجزعت « ماروسيا » من انتشارها ، وخشيت أن تكون تلك الأضواء سببًا فى كشف مخبأ صديقها المتوارى وراء أحزام العلف ، والتفتت إلى حيثُ كان الجندى الذى آنست فيه الرحمة والحنان ، فلم تجده بل وجدت جنديًا آخر قد حل محلّه فأحزنها غيابه كأنها فقدت به حاميًا يحميها فنظر إليها الجندى الجديد وقال لواحد من رفقائه :

— « ما أصغرَ هذه الطفلة ! » . فقال جندى آخر :

— « إنها كالعُقدة الصغيرة فى خيطٍ من الحرير » . فقال الأول :

— « وهى مع ذلك على جانب كبير من الشجاعة لا ترهب أحدًا ولا تخاف من شىء ، تسافر من مكان إلى مكان كأنها ضابط عظيم

---

(١) الغلالة : شعار يلبس تحت الثوب أو تحت الدرع .

من ضباط الفرسان » . فقال آخر :

— « إنها لعلى صواب ، فالنار لا تصيب زَهْر الخَشْخاش ، وهل هذه الطفلة إلاّ زهرة من تلك الزّهرات ؟ » . فقال الأول :

— « إنى أعرف الأكرانيّين ، وأعرف أنهم أبْعَدمن أن يكونوا أمّة من الأرانب ، فكلهم شجعان بُسَلاء[1] لا أستثنى منهم حتى الفَتَيات الصغيرات ، فلقد وقفت غير مرّة على مبلغ شجاعة أولئك الفتيات وإقدامهنّ ، فإنهنّ ليسمعْن المِدْفَع يُدَوِّى ، والبارود يُلَعْلِع[2] ، والصّراخُ يُصِمّ الآذان ، ويرَيْن الدّم يسيل أنهارًا ، والأرض تزلزل زلْزالَها ، وشَظَرات الخناجر تمزّق الأجساد ، ويُقْبِلْن مع كل ذلك على ساحة المعركة ، وَيمْشِين فيها ، وَينْقُلْن الجَرْحَى ، كما لو كنّ يتنزّهْن فى أحد البساتين ويقطفن الأزهار والرّياحين » .

فقال آخر :

— « لا تَنْسَ أن الموت يحصد منهنّ العدَد الضّخْم » . فقال آخر :

— « كلّنا سنموت بسبب من الأسباب وبطريقة من الطُّرق » .

ودوّت عندئذ فى الفضاء بعض طَلَقات النار ، فذكرت الجند بالحرب ، وانتزعت من خواطرهم وأفئدتهم كل عاطفة وكل فكرة لا تدور على الحرب ، وترامَتْ أنظارهم إلى الأفق البعيد يسائلونه ويستوضحون منه جليّة الأمر .

---

(١) بسلاء : جمع باسل أى شجاع . (٢) لعلع الرعد : صوت .

ووقف الضابطان جوادَيْهما ، وكانا على بُعْد من المركبة ، وتبادلا الرأى فى مصدر القتال فاختلفا فيه ، ثم استؤنف إطلاق النار فقال أحد الضابطين :

— « يدور القتال ولا شك بالقرب من معسكرنا ، فهيّا ننضمّ إلى رجالنا » .

وكانت المركبة قد وصلت إليهما ، فقال كبير الضابطين يخاطب جنديًّا من الجنود :

— « عليك أن تقود هذه المركبة إلى منزل ذلك الذى يدعونه "كنيش" أما أنتم جميعًا فاتبعونى . هيّا » .

ولم تكد « ماروسيا » تفيق من ذهولها ، وتستجمع شوارد أفكارها ، حتى كانت فصيلة الفرسان قد توارَتْ وراء سَحابٍ من الغُبار ، وبقيت « ماروسيا » وحيدة مع ذلك الجندى الذى أمره الضابط بقيادة المركبة إلى منزل « كنيش » وطلب إليه تسوية أمر العَلَف مع صاحبه ، فقال لها الجندى وهو يُشْعِل « غليونه » :

— « هيّا سيرى بالمركبة يا قطعة الشهْد » .

فتطلّعت « ماروسيا » إلى ذلك الجندى ، فرأته يُشْبِه قُنْفُذًا[1] من القنافذ ، فصاحت فى صوت عال :

— « هيا إلى الأمام . إلى الأمام » .

---

(١) القنفذ : دويبة ذات ريش حاد فى أعلاه تقى به نفسها إذ تجتمع تحته مستديرة .

وكان الثّوران قد توقفا بعد رحيل الحُرّاس ، فلمّا سمعا صوت « ماروسيا » استأنفا المَسير طائعَيْن ، فعادت المركبة إلى سيرها الوَئيد الرَّتيب ، وتصنعت « ماروسيا » التعب فصعدت إلى قمة المركبة ، وارتمت فوقها تستريح ، واستطاعت فى أثناء ذلك من أن تُمدّ يدَها من خلال بعض الفتحات ، وتشدّ بها على يدِ صديقها العظيم ، فقوّت تلك المصافحة قلبيهما ، وبثّت فى نفسيهما العزم والإقدام . أما الجندى الحارس فلم تُساوِرْه الظنون والرِّيب ، فترك « ماروسيا » تفعل ما تشاء واستمرّ يسير إلى جنب الثورَيْن يدخّن « غليونه » ويرمى ببصره إلى الأفق .

ولم يكن من الصعْب على مَنْ يجتاز ذلك الطريق أن يُدْرك أن الحرب قد مرّت بتلك البقعة وتركت فيها أسوأ الأثر ، فإن وقعت العين هناك على حقل أخضر يَمُوج بالسنابل والعشْب ، فإنها لتقع على عشرة حقول سود قد دمّرتْها الحرب تدميرًا ، وغادرتها قاعًا صَفصفًا[1] ، فلمّا شهدت « ماروسيا » ذلك الدّمار ، فكّرت وقالت فى نفسها : ما أفْظَع الحرب ! .

واشتدّ إطلاق النار ، وتقاربت فَتَراته ، وكانت المركبة قد بدأت تَصْعَد فى هَضْبَةٍ من الهِضاب[2] ، قامت على جانبها مدافن

(١) قاعاً صفصفا : قفراً مستوياً .

(٢) الهضاب : جمع هضبة ، المرتفع من الأرض .

القتلى فى قديم المعارك ، وما أكثر تلك الهضاب فى ذلك البلد !

فلمّا وصلت « ماروسيا » بمركبتها إلى أعلى الهَضْبة ، لمحت فى السَّهْل كثيرًا من الخيام تعلوها سُحُبٌ من الدُّخان الأسود ، وتحيط بها ألْسنة من اللَّهَب ، فعرفت أن ذلك السهل هو المَيْدان الذى تدور فيه المعركة ، وتنطلق منه قذائف النار .

وكانت كلّما سارت بها المركبة قُدُمًا توالى على سمعها صَهِيل الخيل يخالطه أنين الجرْحَى ، وحَشْرَجة المحتَضرين ، وتراءَتْ لها مشاهد أليمة تفتت الأكباد ، فمن منازلَ مهدَّمة ، وأكواخ محرقة إلى أمهات يَحْملْن رضعاءهنّ ويجْرين بهم ذاهلات فاقدات الرّشْد ، إلى جياد تركض بغير فرسان ، إلى جُثَث مكدَّسة ، وأشْلاء[1] متناثرة على أرْض مصبوغة بالدماء .

فاقشعرّ بدن « ماروسيا » وحوّلت نظرها إلى ما وراء تلك الساحة الرّهيبة ، فبدَتْ لها مزرعة « كنيش » الخضراء المزدهرة ، كأنها بعد تلك المشاهد المروعة ، واحة تتراءاها العين وسط الزّوابع والعواصف ، فعرفت « ماروسيا » وهى فى عالى مَرْصَدها ، ورق كل شجرة ولون كل زهرة من بستان السيد « كنيش » .

وصلت « ماروسيا » بعد قليل بمركبتها إلى ساحة المنزل ، بعد أن دارت حول ميدان المعركة ، فرأت الباب مفتوحًا ، ورأت فى أرجاء

---

(١) أشلاء : جمع شلو ، العضو من أعضاء اللحم .

السّاحة ، جمّاعةً من الدّجاج تَمْرَح وتَسْرَح غير عابئة بالحرب وأهوالها ، ووقع بصرُها كذلك على عدد من المركبات والمحاريث ذات السّكاكين اللامعة ، وعلى مجموعة من المعاول تنتظر سواعد العمال .

وكان على جانب الباب ، كلب ضَخْم أسود كالفَحْم ، عرف « ماروسيا » فخفّ يستقبلها استقبالَ صديق جاء يزور ربّ البيت .

٣

لم تتكبّد المركبة تقف عند الباب ، حتى سارع إلى « ماروسيا » صبيٌّ فى السابعة من عمره ، قويّ البِنْية كالصخر ، وردىّ الوجْنَتَيْن كالفجر ، حديد النظر كالصَّقْر .

فلما رأته « ماروسيا » قد اقترب منها ، سألته قائلة :

— « هل السيد "كنيش" هنا ؟ » .

— « نعم هنا » .

— « وأين هو ؟ » .

— « إنه فى الحديقة ، وقد يكون فى المنزل أو فى الحقل » .

— هل تتفضّل فتبلغه نبأ وصولنا ؟ » .

وأضاف الجندىّ الحارس إلى كلام « ماروسيا » قوله :

— « عجّل ، ولا تجعلنا ننتظر طويلاً . »

وما كاد الجندىّ يُتِمّ كلامه ، حتى مرّ بهم السيد « كنيش » وكان راجعًا من الحقل فحيّاهم ورحّب بمقدمهم .

والسيّد « كنيش » هذا ، يبدو للناظر إليه، أنه رجل طاعِنٌ فى السنّ ، قد رَزَحَ[1] كاهِلُه[2] تحت وطأة السّنين ، فاحدَوْدَبَ ظهره قليلاً ، ولكنه كان لا يزال جمّ النشاط ، موصول الحركة ، يأسر قلب محدّثه بخفّة روحه ، وسلامة طويّته ، وسذاجة فؤاده .

وكان يرتدى ملابس الفلاحين ، فمن قميصٍ فَضْفاض إلى سِرْوال أوسع من خُلْجان البحر الأسود ، وكان على رأسه قُبَّعة من القَشّ المَضْفُور ، عريضة الجوانب تحميه من وهج الشَّمْس .

وقع نظره على « ماروسيا » فعرفها لأوّل وَهْلَة ، ولم يُدْهَش من رؤيتها فى دِياره ، كأنّ زيارتها إياه كانت أمرًا مألوفًا فقال لها :

— « كيف حالك يا بُنَيَّتى ؟ تعالَىْ فادخلى البيت ، ولكن إذا كنت تؤثرين الهواء الطَّلْق فاصْحَبِى حفيدى « تاراس » إلى الحديقة واجْنِى فيها ما شئتِ من ثمر ، ثم إن لدينا فى البيت بعض الحلوى

(١) رزح الجمل : سقط ولصق بالأرض ولم يستطع النهوض هزالا أو تعباً .

(٢) الكاهل : أعلى الظهور مما يلى العنق .

اللذيذة ، فمن فطائر بالعسل إلى فطائر بالجبن ، إلى . . . » .

وخطف الجندىّ الحارس كلمة الفطائر خطفًا ، فقال بصوت أجشّ لطف من حدّته تفكيره فى الفطائر :

— « أرى أن بيتك وافر الزّاد والمؤن [1] » . فقال « كنيش » العجوز :

— « الحمد لله ، تفضّل بالدّخول ، تفضّل » . ثم تابع دعوته وقال :

— « تفضّل بالدّخول . تفضّل . يا للمفاجأة الكريمة السّارّة ! يا لسعْد الطالع ! إنى أحبّ جميع المحاربين . . . تفضّل يا سيدى الجندىّ . . . » .

أمّا هذا الجندىّ الذى يُحيّيه ويدعوه لمنزله ، فقد كان مُتْعَبًا كل التعب ، جائعًا جوع الذئاب ، فتبع الفلاّح الشيخ طائعا راضيًا ، فلم يكَد يدخل حُجْرة الضيوف ، حتى ارتمى على أحد المقاعد وأخذ يتثاءب ويمُدّ ذراعَيْه وساقَيْه ، ويثنيهما ، إراحةً لجسمه المسكين من عناء القتال .

وعُنِيَتْ « ماروسيا » أوّلاً بإدخال المركبة ساحة الدار ، وساعدها على ذلك « تاراس » الصغير فى حَمِيّة بالغة ، وهمّة تفوق الوصف ، ثم ذهبت تلقى الرجلَيْن ، فلما مَثُلَتْ أمامهما قالت تخاطب السيد « كنيش » :

— « ما أجْمَلَ القمحَ فى حقولك ! لقد رأيته فأعْجِبْت به وبلونه

---

(١) المؤن : جمع مونة ومئونة ، القوت .

الأصفر الجميل، ويمكن الانتفاع به الآن » .فقال« كنيش » العجوز :

ــ « الحمد لله ! الحمد لله يا صغيرتى ! نَعَمْ إن مَوْسِمنا فى هذا العام لوافرٌ جزيل » .

قال هذا بصوت هادئ لا أثر فيه لجَزَع ولا اضطِّراب ، ثم نهض يَذْرَعُ الغرفةجيئةً وذَهُوبًا ، ينادى الخدم ويُصْدِر إليهم أوامره فَرِحًا مسرورًا ، دون أن ينظر إلى عينى الطفلة أو يسائلها شيئًا من الأشياء .

ورأته « ماروسيا » على هذه الحال فساءلت نفسها :

ــ « أتُرَاه فَهِمَ الرسالة ؟ كلاَّ . لم يفهمها ! فإن لم يفهمها فماذا العمل ؟ » .

وضاق صدرها فلم تعرف بماذا تفكّر ولا ماذا تعمل ، ولكن عاودتها فكرة التشبّه برسول « ستش » فقالت فى نفسها :

يجب أن أتشبّه به فى الشجاعة والإقدام ! يجب أن أعرف كيف أسْكُت وكيف أنتظر !

وزادها إيمانًا بالسكوت والتريّث ، ما لمسته من سكوت صديقها الكبير وتريّثه ، فقد كان فى وسْعه عندما انصرفت فصيلة الفرسان عن المركبة ، أن يخرج من مخبئه ، وينقضّ على الجندىّ الوحيد ، الذى نيطَت به الحراسة ، ويتركه جثة هامدة ، كما كان فى مقدوره أيضًا أن يغادر مخبأه عندما وصلت المركبة إلى منزل « كنيش » ولكنه

لم يفعل بل آثر[1] الصمت والانتظار .

ومنذ أن عزمت فى قرارة نفسها أن تتشبّه به ، امتنعت عن توجيه الأسئلة إلى العجوز «كنيش» ولزمته كظلّه تمشى وراءه حيثما سار وأنّى اتّجه ، أمنحدرًا كان إلى القَبْو أم صاعدًا إلى مستودَع الزّاد فى أعلى الدّار ، وهو بين هذا وذاك يجمع الأطباق والصحون والأقداح ، ويرمى بالملاعق إلى الأرض ، ويركض إلى البستان ليقطف منه بعض الخضر والثمار وهكذا دوالَيْك .

وكان الجندىّ يتبعه بنظراته ، فى ذَهابه وإيابه ، ويرى تأهّبه العظيم ، فيعلّل نفسه بطعام وافر بل بمأدُبةٍ فَخْمة ، حتى إذا طال انتظاره ، وقرضت أنياب الجوع بطنه صاح به قائلاً :

— « لا تُتْعِب نفسك يا سيّدى ، فأنا رجل أكتفى بالقليل . . . أجَلْ إنى أقْنَع بما أراه هناك ، وأرْضَى به كلّ الرضى » . فقال «كنيش» :

— « كلاّ ألف مرّة كلاّ . فلابُدّ لى من أن أقدّم لك طعامًا شهيًّا يليق بمكانتك ، أجَلْ لا بُدّ لى من أن أقدّم لك خير ما فى منزلى الوضيع . . . ناشدتُك اللهَ إلا رأفتَ بشيخٍ طاعنٍ فى السنّ مثلى ، وسمحتَ له أن يتوفّر[2] على خدمتك ، ويُعِدّ لك الطعام الذى يريده » . فقال الجندىّ :

---

(١) آثر : فضل .

(٢) توفر على الشىء : صرف همته إليه .

ـ « نحن الجنود لم نتعوّد شهيّ الطعام ، فحَسْبُنا ما سَدّ خَلّة(1) الجوع » . فقال الشيخ :

ـ « نعم ويا للأسف . إن حياة الجندية شاقّة مُرْهِقة ، فلطالما سمعتُ عنها الأحاديث الطِّوال ، فمكّنّى يا سيدى من أن أعوّضك قليلاً عمّا كابدتَ منها وعانَيْتَ » .

وكانت « ماروسيا » جالسة فى إحدى زوايا الغرفة ، تحاول أن تظهر بالمظهر الذى كان يتخذه صديقها الكبير لو أنه شَهِد ذلك الاجتماع ، فأوحَى إليها تفكيرها فيه بأن تبدو هادئةً حكيمة .

غير أن الرجاء والقلق أخذا بعد قليل يتناوبان على قلب هذه الطفلة ، المسكينة ، فساءلت نفسها :

أتُراه لا يزال مدفونًا فى أحشاء العَلَف ، أم استطاع أن يخرج منه ؟

أهو الآن فى مكان أمين ؟ فإن كان قد غادر المخبأ والمنزل فأين يمكنها أن تلقاه ؟ وما الأخطار التى سيتعرّض لها ؟ وماذا تقول لأبيها إذا علم أنها انفصلت عن رسول « ستش » قبل أن توصله إلى غايته ؟

وبقيت مثل هذه الأفكار تتواتر على ذهنها الرّطْب الصغير ، حتى مُدّ الخِوان(2) ، وأُعِدّ طعام الإفطار ، فانكبّ الجندىّ عليه يلتهمه التهامًا فى حَنَق وغضب ، بعد إذ كان عِيلَ صبره من طول الانتظار .

---

(1) الخلة : الحاجة .

(2) الخوان : ما يوضع عليه الطعام ليؤكل وتسميه العامة السفرة .

تناول أوّلَ لُقْمَة ، بوجه صارم عابس ، وبشَراهة ما بَعْدَها شراهة ، شأنَ المحارب الذى قلّما يَحْفِل برعاية حَلْقه وبُلْعُومه ، ثم بدأت أسارير وجهه تتبسّط غِبْطةً وارتياحًا كلما أتْبَعَ لقمةً بأخرى ، وازداد حبورًا عندما أفْرَغَ فى جَوْفه كؤوس الشَراب ، كأسًا بعد كأس ، فهذا شراب التُّوت ، وهذا شراب الكرز ، وذلك شراب الوَرْد ، واستمرّ على هذه الحال حتى ارْتَوَى وشَبِع ، وطافت بشفتيه ابتسامة عريضة .

وكان الشيخ « كنيش » لا يفتأ يقدّم له ألوانًا جديدةً من الطعام والشراب ، ولا يَفْتَأ حينًا بعد حين يصيح صيحة المتذكّر ويقول :

— « آه ! يا للفكرة العظيمة ! لقد تذكّرت أنّ لدىّ صِنْفًا من الشّراب لذيذ الطعم طيّب العَرف[1] ، فاسمح لى يا سيدى أن أجيئك به » .

ثم يطير إلى حجرة الزّاد أو القَبْو قبل أن يظْفَر بالجواب ، ويرجِع بالصِّنْف الجديد ويضعه على المائدة أمام الجندى ، غير عابئٍ باعتراض الجندى الذى كان قد امتلأ جوفه حتى كاد يَنْبَعِج[2] .

وأقبل « كنيش » بعد كل ذلك بزُجاجة شراب جديدة ، فركزها إزاء الجندىّ ، والتفت فرأى حفيده « تاراس » واقفًا على مَقْرُبة منه فقال له :

— « ماذا تفعل هنا يا " تاراس " ؟ لو كنتُ مكانك لذهبتُ أقدّم العَلَف للشِّيران » .

---

(١) العرف : الرائحة مطلقاً . (٢) ينبعج : ينفجر .

واغتنمت « ماروسيا » الفرصة ، بعد إذ كادت تختنق جزَعًا وإعياء ، واقتربت من الشيخ « كنيش » وقالت :

— « سأذهب مع " تاراس " » . فقال لها الشيخ راضيًا :

— « اذهبي يا بنيّتي . اذهبي » .

فلمّا مرّت به ، مدّ يده إلى رأسها وداعَبَ شعرها مداعبةً رفيقة ، فأعادت هذه الحركة الخفيفة إلى قلب « ماروسيا » الثقة والأمل ، فتبدّد قلقها ، وشعرت أن الشجاعة قد عاودتها وأن قلبها الذى كان معصورًا مخنوقًا قد رجع حرًّا طليقًا .

وحاول الجندىّ أن يستجمع شوارد[1] فكره ، فصمت لحظةً ثم قال يخاطب الشيخ « كنيش » :

— « إن العَلَف يا عزيزى . . . ذلك العَلَف الذى عُهِدَ إلىّ فى حِراسته . . . أجَلْ ذلك العَلَف ، إنه لنا ! أتفهمنى ؟ لقد استولينا عليه فهو إذن ملْكٌ لنا . . .

هذا كلام واضح أليس كذلك ؟ على أنك إذا شئت أن تحتفظ به فادفع لى ثمنه . . . وانْقدْنى مبلغًا من المال . . . مبلغًا كبيرًا من المال ، وأنا أنزِل لك عنه . . . وستكون قد فُزْتَ بصفقة رابحة » .

فقال « كنيش » العجوز :

— « إنك يا صاحبى السيّد المُطاع غيْر منازَع . . . فى مقدورك

(١) شوارد : جمع شاردة أى نافرة .

أن تستولى على ما شئت ، وتأخذ ما أردت . . . أجَلْ إنك السيد المُطاع ! » . فقال الجندىّ :

— « حسن . حسن جدًّا » .

وصلت « ماروسيا » إلى ساحة الدار ، فوجدت مركبتها لا تزال محمّلةً بالعَلَف ، واقفةً حيث تركتها . ورأت « تاراس » قد سارع إلى المركبة ، وتسلّق أحد دواليبها ، ومضى يتناول ما تصل إليه يده من أحزام العَلَف ، ويقدّمها للثورين فيقبلانها منه فى جَلال وعظمة .

أمّا « ماروسيا » فكانت تدور حول المركبة كالطّائر الجريح .

وأيقن « تاراس » أن الثورين قد شَبِعا ، فنزل من دولاب المركبة ، وأقبل على « ماروسيا » يحدّثها ويطرح عليها الأسئلة ، فما كانت تجيبه إلا بكلمات متقطّعة ، مشغولة عنه بهمّها الفادح .

وخطر ببالها فجأة ، أن وقوفها على مَقْرُبة من المركبة قد يبدو أمرًا غريبًا ، فابتعدت عنها مسرعة الخُطَى ، ومضت تجول فى أنحاء الساحة ، ثم عرّجت على الحديقة فمشت فيها قليلاً وهى تهتف بنفسها قائلة :

— « ما العمل ؟ أىّ مصير ينتظره ؟ كيف يمكن إنقاذه ؟ إن المركبة لم يتغير مظهرها أفتراه لا يزال . . . » .

وقطعت تفكيرها وأسئلتها ، وعادت إلى الساحة وفى نيّتها ، لو خلا لها الجو فيها ، أن تحدّثه أو تلفت إليها نظره بوسيلةٍ من الوسائل .

فرّت بكومة من الحجارة الضّخْمة ، قد تكدّست عند جدارٍ مُتَداعٍ ، فخُيِّل إليها بل وثقت كل الوثوق أنها تسمع صوته منبعثاً من جوف الأرض وهو يقول لها :

— « شكراً يا " ماروسيا " اطمئنّي بالاً فكل شيء يجرى على ما يرام ! » .

وغلب الفرح على قلبها الصغير ، فلم تمالك قواها وسقطت على العُشْب لا تستطيع حَراكاً . وعادت إليها قواها رُوَيْداً رُوَيْداً ، فحاولت أن تعرف مصدر ذلك الصوت الذى سرّها أن تسمعه .

كانت الحجارة المكدّسة التى وقفت « ماروسيا » إلى جوارها قديمة العهد جداً ، وكان العشب قد نَبَتَ على سطحها ، ونَبَتَ معه كثيرٌ من الأزهار البرّية والنبات المتعرِّش ، فأدركت الطفلة الصغيرة بذكائها وفِطْنتها ، أن تلك الحجارة كانت مرميّةً هناك منذ زمن طويل ، وأنها بقايا منزل متهدّم قد تُخْفِى تحتها مَغارةً من المغارات ، ثم ما لبثتْ عينها البحّاثة أن كشفت فتحة تلك المَغارة وإن كانت مغطّاة بالكثيف من الأعشاب والنبات ، فساءلت الطفلة الصغيرة نفسها قائلة وقلبها تُسْمِعَ دَقّاتُه :

— « أفى يَقَظة أنا أم فى حُلْم ؟ أصوته الذى سمعته أم أنه ضَرْبٌ من الوهم ؟ » . ولكن الصوت عاد ثانيةً يحدّثها منبعثاً من تحت الأنقاض قائلاً لها :

— « هدّئى رُوعَك واطمئنى يا صديقتى الوفيّة . . . لقد اجتزنا التيّار فلن نَغْرَق فى الميناء ، ذلك أملنا فعسى الله يحقّقه لنا » .

وانقطع الصوت ، وعاد السكون يُخَيِّم على المكان ، ولكن « ماروسيا » ظلت واقفةً لا تتحرّك وهى تُنْصِت بكل جارحة [1] من جوارحها .

فعلتْ بها كلماتُ صديقها الكبير فِعْلَ السِّحْر ، فتبدّدت مخاوفها ، وامتلأ قلبها فرحًا واصطبغت وَجْنَتَاها بحُمْرة الورد ، ولمعتْ عيناها ببريق يَخْطَف الأبصار ، حتى إن الصبى « تاراس » وكان فى ساحة الدار يتدرّب على الكر والفرّ ، والمبارزة والصِّراع ، هُرِعَ إليها ووقف منها وجهًا لوجه ، يسرّح فيها نظرة المستطلِع المدهوش من هذا التغيّر الذى طرأ عليها ، ففكّر فى نفسه وقال :

— « إنها فَرِحة مسرورة ، فلعلّ جَدِّى أعطاها بعض النُّقْل [2] والحلْوى ، فما أعطاها يا تُرى ؟

أقِطَعًا من عِيدان السكّرِ أم شيئًا من البُنْدُق المحمّص » .

وكان كلما ازداد تحديقًا إلى الطفلة الصغيرة ، أمْعَنَ خياله الثائر فى الحَدْس والتّخْمين ، وحاول أن يَحْرِز ماذا نالت من جَدّه فأفرحها ذلك الفرح ، فكان موقفه منها وهو على تلك الحال من الحَيْرَة ، موقف النَّسْر الذى يبسط جناحَيْه وَيُمدّ مِنْقاره ، ويحاول

---

(١) الجارحة : العضو من الإنسان .

(٢) النقل : ما ينتقل به على الشراب من فستق وتفاح ونحوهما .

ببصره الحادّ أن يعرف صِنْف الفريسة التى وقع عليها :

فلمّا طال وقوف الصبىّ وسكوته ، قالت له « ماروسيا » :

ــ « أتريد أن نذهب إلى الحديقة » . فقال « تاراس » فى شىء من التردّد :

ــ « أخبرينى ماذا أعطاك جدّى ؟ »

ــ « لم يُعْطِنى شيئًا » .

ــ « إذن وعدك بشىء مّا ، فماذا وَعَدَك ؟ » .

ــ « لم يَعِدْنى بشىء على الإطلاق » . فنظر إليها « تاراس » مرتابًا وقال :

ــ « فعلامَ إذن هذا السُّرور الطاغى عليك ؟ » .

أرادت « ماروسيا » أن تقول لمحدّثها « كلاّ لستُ مسرورة » ولكن نفسها لم تكن لتطاوعها على الكَذِب ، حتى فى النبيل من المقاصد ، فكرّرت دعوتها وقالت للصبىّ :

ــ « هيا بنا إلى الحديقة » . فقال لها « تاراس » متبرمًا :

ــ « هَيَّا بنا إليها » .

ــ « أترانا نعثر فيها على شىء من التوت البرّىّ ؟ »

فقال « تاراس » مستعليًا منتفخ الأوداج[1] :

ــ « التوت البرّىّ ؟ إذا شئت أنا عثرت منه على قَدْر وافر ! » .

ــ « أتظننى أستطيع العثور على شىء من هذا الثمر ؟ »

ــ « قد تستطيعين ، فليس هذا بالأمر الصعب ، فما هو اصطياد

---

(١) الأوداج : جمع ودج بفتحتين ، عرق العنق ينتفخ عند الغضب .

أرنب ، ولا قَنَص قُنْفُذ ! » .

وسارا معًا إلى الحديقة ، وقد شمخ « تاراس » بأنْفه كِبْرًا وعُجْبًا ، ليظهر بمظهر صيّاد الأرانب والقنافذ ثم قال :

— « إن البنات الصغيرات لا شجاعة لهن . . . ذلك رأيي . . . أمّا الصّبيان . . . » .

فقالت « ماروسيا » معترفةً بفضل الصبيان مُثْنِيَةً على شجاعتهم :

— « إن الصبيان لَعَلَى جانبٍ كبير من الشجاعة » .

فوقع كلام « ماروسيا » من قلب « تاراس » أجْمَل وَقْع وحدّثته نفسه أن الطفلة ليست من الغباوة على ما ظنّ وقدّر فقال :

— « إنهم كذلك . . . إنهم يعرفون ركوب الخيل ، ويعرفون كيف يروّضون أكثرها جموحًا[1] وتوحّشًا . ألا ترين ذلك عجبًا عجابًا ؟ »

فقالت « ماروسيا » وهي تبتسم :— « حقًّا إنه العَجَبُ العُجاب ! » .

فقال الطفل الصغير :

— « سترَيْن يومًا كيف أجيد ركوب جوامح الأفراس . . . كنت بالأمس ممتطيًا صَهْوَة جواد من جِيادنا ، فمررت به على جارتنا العجوز وأنا انتهب به الأرض انتهابًا ، فذُعرَت كلّ الذُعْر ، وظنّته سَهْمًا من سِهام التّتَر يخترق الفضاء ، أتعرفين يا "ماروسيا" أن النساء العجائز يخشَيْن التّتَر ويرهَبْنَهم ؟ »

---

(١) جمح الفرس جماحاً وجموحاً : تغلب على راكبه وذهب به لا يثنى .

فقالت « ماروسيا » رائيةً لحالهنّ :

ـ « يا لهنّ من مسكينات منكودات الطالع ! » .

فقال « تاراس » معتزًّا مباهيًا ، مُحيطًا محدّثته بلفتة كريمة :

ـ « أما أنت فحذارِ أن تخافى ! فسوف أدافع عنك وأحميك من كل مكروه ! » .

ـ « شكرًا لك يا عزيزى » .

ـ « كونى مطمئنّة البال ، واعلمى أنّى أهزأ بالأهوال والأخطار ، فى يومٍ من الأيام ولعلّه قريب سأمزّق أعداء" أكرانيا " شرّ تمزيق ... أتريدين أن تدخلى من هذا الباب الصغير ؟ تعالَىْ من هنا . . . أتعلمين الخُطّة التى استقرّت فى ذهنى ؟ إنك ولا ريْب تجهلينها !»...

ـ « نعم أجهلها فما هى ؟ » .

ـ « هى أن أنقضّ على معسكر التّتر فأعْمِل فيهم الضّرْب والطّعْن وأعود بزعيمهم أسيرًا . . . » .

ومضى « تاراس » يُطْلِع « ماروسيا » على ما يجُول فى ذهنه الصغير من خُطَط وعزائم ، وظلّ يحدّثها بمثل هذا الذى يغلى فى صدره ، وهما يسيران جَنْبًا إلى جَنْب فى الحديقة ، حتى مضى يتوسّع فى آرائه ويَرْوِى لها أنباء المعركة الأخيرة ، ويرى أن الزعيم كان بطيئًا فى هجماته ، متمهّلاً فى ضَرَباته ، فمُنِىَ بالهزيمة والاندحار .

وكانت « ماروسيا » تستمع له فى صمتٍ وسكون .

وعندما فرغ « تاراس » من حديثه ، نظر إلى « ماروسيا » فما وَسِعَه إلاَّ أن يقول فى نفسه :

« يا لله ، ما هذا الإشراق الملألىء على محيّاها ! ما هذا السرور البادى عليها ! فلو أنها ظَفِرَت بجميع أصناف الحلوى التى تزخر بها منازل القرية ودكاكينها ، لما كانت أكثر إشراقًا ولا أوفر حبورًا . . . إنى لعَلَى يقين من أنها ظَفِرَت بشىءٍ ثمين وخبأته فى بعض الأماكن ... إنها طفلة لطيفة ، وديعة القلب ، كريمة النفس ، فسوف تقاسمنى كَنْزَها المخبوء ... مُحالٌ على الإنسان أن يكون مسرورًا بلا سَبَب. سوف تُطْلِعنى على سرّها لا مَحالة . . . وربّما خصّتنى بالنصيب الأوفر من كَنْزِها . . . »

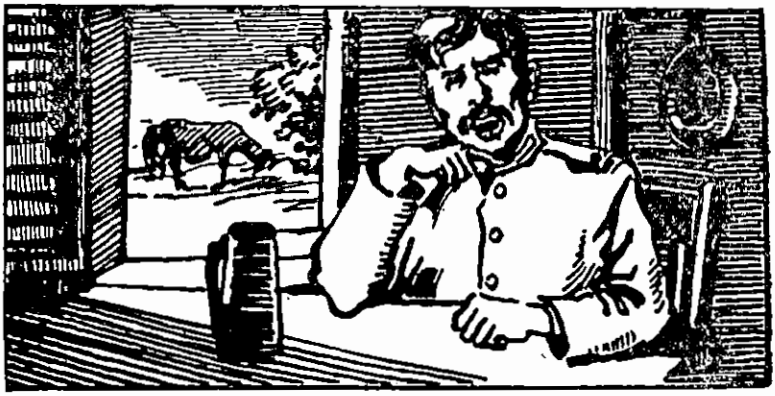

٤

كاد النّهار يَنْتَصِف ، وكادت الشمس تبلغ كَبِدَ السماء ، وكانت أشعّتها المُحْرِقة قد بدأت منذ قليل تتسرَّب من النافذة إلى وجه الجندى النائم بجوارها ، بعد الوليمة التى ازدرد فيها الطعام ازدراداً .

كان وجهه أحمر كالجمر ، تحرقه حرارة الشمس وتَشْوِيه ، وهو مع ذلك لا يُريد أن يصحو ولا أن يَنْهَض من مكانه ، وكان يَهْتِف فى نفسه وهو مُغْمَض الجفون ويقول : « لو أننى فتحتُ عينى وانتقلتُ من مكانى ، لتبدّدت غِبْطَتى وطار النوم من عينى » فبقى

مضطَّجِعًا حيث هو لا يتحرّك ولا يَرِيم[1] .

وعلى حين فَجْأة ، هَبَّ مذعورًا من مَضْجَعِه ، كأنه مَسّ حديدًا مَحْمِيًّا ولكن لا نار هناك ولا حديد يضطَرِم، فإنما مَرّ بكفّه على خَدّه الملتهب بحرارة الشمس ، فلسعه السعير ، فوَثَبَ واقفًا .

ابتعد من النافذة ، وأجال طَرْفَه فى أنحاء الغرفة ، وشَرَع يُصْلِحُ من هِنْدامه وبِزَّته[2] العسكريّة ، ويستعيد طبيعة مظهره ، ويسائل نفسه أين هو ؟

وعادت إليه الذاكرة شيئًا فشيئًا ، ولكن شَدّ ما دُهِش إذ رأى الحجرة خالية لا أحد فيها سواه ، فعلّل نفسه قائلاً : لعَلّ « كنيش » العجوز قد تركنى وحيدًا حتى يوفّر لى الراحة والهدوء وهَنِيء الرُّقاد ، ولكن كم من الوقت مضى علىّ وأنا مستغرقٌ فى النوم ؟ فلمّا ضاق فكره عن الجواب الشّافى ، استَحْوَذ[3] عليه القَلَق ، وأخذ يصيح ويملأ البيت صُراخًا مزعجًا ، وهو يُتْبِع صيحاته بمثل قوله :

– « يا ناس ! يا قوم ! أيّها العجوز الأصمّ ! تعالَ . أسرِع . حملتك الزَّوابع ! » .

وخفّت « ماروسيا » و « تاراس » الصغير إلى المنزل عند سمَاعهما تلك الصَّرَخات المُنْكَرة ، ولكنهما خافا أن يتعرّضا لغضب ذلك الوحش الذى استيقظ ، فتداريَا وراء شجرة كثيفة الورق ، وأرْهَفا

(١) رام يريم : تحرك . (٢) البزة : الثياب . (٣) استحوذ : استولى .

السَّمْع . وكان الجندىّ كلّما تَعِب من الصُّراخ ، سكت قليلاً ثم عاد إلى أشَدّ منه ، كأنّ صوته عَزِيف[1] الجن والشياطين ، وكان لا يفتأ يردّد هذه الجملة : — « أين أنت أيها الشيخ اللعين ؟ » .

وأدرك الجندى أنه قضى وقتًا طويلاً فى هذا المنزل ، فرفس الباب رفْسةً شديدة ، وخرج منه والسيف مشهورٌ فى يده ، وأجال نظره ذات اليمين وذات الشمال ، شأنَ الرجل الذى لا يعرف أين يوجّه ضَرَباته .

وبعد فَتْرَة قصيرة من الحَيْرة والتردّد قال :

— « حملتنى الأبالسة إن كنت أعرف أىّ وجهة أتّجه ! »

فضى يطوف بساحة الدار ، ويوزّع ضَرَبات سيفه على الهواء وأغصان الشجر ، كمن يبحث عن هدفٍ يُعْمِل فيه سيفه .

وبينما هو مستسلم إلى طُوافه وجَوَلانِه ، تعثّر بأكوام الحجارة المكدّسة عند مدخل المغارة فامتُقع وجه « ماروسيا » وهى فى مخبئها ، ولكنه نهض من كَبْوَته[2] وهو يقذف من فيه[3] الشتائم واللعنات ، وانتهت به خاتمة المَطاف إلى العودة من حيث بدأ .

وماج عندئذ فى الفضاء صوت العجوز « كنيش » وهو يقول :

— « ها أنا ذا يا سيّدى الجندىّ ، انتظرنى فأكون رَهْنَ إشارتك » .

وكانت لهجته تدلّ على مبلغ استيائه من تأخّره عن ضيفٍ عظيم

(١) عزيف : صوت . (٢) الكبوة : السقطة . (٣) من فيه : من فمه .

مثل ضيفه ، وكان يُغِذُّ[1] السير إليه فى خطوات قصيرة متلاحقة .

سمع الجندىّ كلام العجوز « كنيش » ولكنه لم يستطع أن يتبيّن مصدر الصوت ، فصاح فيه مزمجرًا :

— « ولكن أين أنت ؟ »

— « أنا هنا يا سيّدى » . فأمْعَنَ الجندىّ فى الزَّمْجَرة وقال :

— « هنا ؟ أين ؟ » .

— « إنى ماثلٌ فى حضرتك يا سيّدى الجندىّ . ألا ترانى ؟ ».

وكان « كنيش » حقًّا بإزاء الجندىّ ، يَلْهَثُ من التَّعَب ويبتسم لضيفه ابتسامةَ الصديق للصديق . فسأله بعد هُنَيْهَة فى حَنَان أبوىّ :

— « هل نعمتَ بالراحة فى نومتك ؟ لعلَّ الذُّباب لم يلسعك كثيرًا ، إنى أغلقتُ كل المنافذ لتتمتّعَ بُرقادٍ هانىءٍ طويل » .

فقال الجندىّ مُحْنَقًا :

— « لِتَشْوِ نار السماء ذُبابَك ، إنى أهزأ بلسعاته ، ليته أيقظنى ولم يتركنى أغطّ فى النوم » . فقال « كنيش » متفلسفًا :

— « أصدقك القول يا سيّدى أن الإنسان يُحِبّ ألاّ يستيقظ من مَنامه على لَسَعَات الذُّباب ، إن الذُّباب وباء وَبِيل[2] . . . »

فقال الجندىّ متسائلاً كأنه استيقظ الساعة من مَنامه :

— « عن أىّ وباء تتحدّث ؟ » .

---

(١) يغذ السير وفى السير : يسرع . (٢) وبيل : شديد وخيم .

— « وباء الذباب يا سيّدى... هذه الحشرات التى لا تميز بين أقدار الناس وطبيعة الأشياء ، فتقع على القائد والفلاّح وقوعها على فطائر العسل ، فعلام إذن يتفاضل الناس فى المراتب والمِهَن ؟ » .

فقاطعه الجندى قائلاً :

— « إنى فريسة صُداع أليم ، فهلاّ أتيتنى بشَراب مُنْعِش » .

فصاح الشيخ مسروراً :

— « حُبًّا وكَرامةً . فمنتهى سعادتى أن أتوفّر على خدمتك » .

وجرى الشيخ إلى المطبخ فَرِحًا مَزْهُوًّا ، وتبعه الجندى وهو يفتل شاربَيْه كمن يتوقّع أن يَظْفَر بشىء حَسَن . فلما وصلا إلى المطبخ قال « كنيش » :

— « اجلس هنا يا سيّدى . اجلس على هذا الكرسى فسآتيك فى الحال بشراب لذيذ » . فقال الجندىّ غيرَ مكترث لمجاملة الشيخ :

— « ليس لدىّ وقت للجلوس . هاتِ شرابك فسوف أفْرِغُه فى جَوْفى وأنا واقف . هل أعْدَدْتَ النقود ؟ يجب أن أرحل سريعًا » .

فقال الشيخ « كنيش » :

— « يا لسوء الطّالع ! لولا رغبتك فى الرحيل لرشفتَ[1] الشراب الذى سآتيك به رَشْفًا رفيقًا ملتذًّا بطعمه ، اسمح لى أن أقول لك إنه شراب . . . » . فقاطعه الجندىّ متضايقًا وقال :

---

(١) رشف الماء ونحوه : مصه بشفتيه .

— « هل أعددت النقود ؟ » .

— « نعم يا سيدى » .

وتنهّد الشيخ تنهُّدةً عميقة ، وأخرج على أثرها من جيبه كيسًا من الجلد وأفْرَغ ما فيه من قِطَع النقود على المائدة ، وأخذَ يُعدّها وَيُصفّها أعمدة متشابهة .

وما كاد الشيخ ينتهى من عدّها فى تنهُّد متواصل ، حتى انقضّ الجندىّ عليها وأودعها جيبَه ، وخرج فى خطوات سريعة إلى ساحة الدار ، ففكّ رِباط جواده ، وقفز إلى ظهره وطار به ، مخترقًا السهل الواسع ، حتى غاب عن الأنظار . . .

وبينما كانت نظرات الصبى « تاراس » تتبع الجندىّ الطائر ، كانت عينا « ماروسيا » شاخصتين إلى القروىّ العجوز ، فرأته قد تنفّس الصُّعَداء[1] كأنّ رحيل الجندىّ قد أنقذه من كابوس ثقيل ، فعاد أدْرَاجَه إلى البيت .

فخفّ إليه الصبىّ « تاراس » وسأله قائلاً :

— « قل لى يا جدّى العزيز أين يُعَسْكر العدوّ ؟ »

فالتفت الشيخ فرأى « تاراس » و « ماروسيا » فقال لهما :

— « أ أنتما هنا يا عزيزىّ ؟ هل قمتما بنُزهة جميلة فى الحديقة ؟ وهل أنتما مُتْعَبان جائعان ؟ تعالَيا معى فلا يزال لدينا كثير من

(١) الصعداء : التنفس الطويل من هم أو تعب .

الزّاد لم يأتِ عليه الجنديّ .

اتبعانى وأسرِعا » .

وجلس الطفلان يأكلان ، فتَفَتَك « تاراس » بالطعام فتْكًا ذَرِيعًا[1] ، وهو لا ينفكّ بين لُقْمة وأخرى يسأل جدّه عن معسكر الأعداء ، ويناقشه فى المعركة الأخيرة التى نَشِبت بينهم وبين جنود الزعيم ، ويحتدم شوقًا إلى أن يكون له نصيبٌ فى الدفاع عن الوطن والتنكيل بالأعداء . فكان جدّه يُجيبه عن أسئلته ، ويطارحه الكلام فخورًا بهذه الحميّة التى تختلج بها جوانح الطفل الصغير ، أمّا « ماروسيا » فتناولت من الطعام أقلّه ، وعيناها لا تنصرفان عن النظر إلى وجه ذلك القوزاق الشيخ . وحينما قدّم ذلك الشيخ النبيل آخر قِطَع الحلوى إلى الطفلين قال يخاطب « تاراس » :

— « لقد نَسِينا يا عزيزى ، تلك الشَّبكة التى طرحناها أمس فى المكان الذى اخترتَه أنت من السّاقية ، فربّما اجتمع فيها الآن عدد وافر من صغار السَّمَك ، فما قولك ؟ » . فصاح الطفل أسِفًا :

— « ويحى ! كيف نَسِيت أمر هذه الشبكة ؟ » .

وهبَّ ناهضًا من مكانه ، وجرى إلى الباب قَفْزًا ، وخرج وهو يقول :

— « عُذْرًا فإنى ذاهب بل طائر إليها » .

---

(١) الذريع : السريع القطيع .

وخيَّم الصمت بعد ذهابه ، وسَرَّ « ماروسيا » أن تجتمع أخيرًا بالقروىّ الشيخ وَحْدَه ، فنظر هذا إليها نظرةً طويلةً غريبة ، جعلت قلبها يَدقُّ دقاتٍ سريعة ، كأنّه مِطْرَقة صغيرة تعلو وتهبِطُ فى حركة متلاحقة .

ونظرت هى إليه ، فلاحَ لها أن كل شىء فيه قد تغيَّر فجأة ، فما عادت صورة « كنيش » تمثِّل ذلك الشيخ السَّاذج الجَبان المُدِلّ (١) بطعامه وشرابه ، بل رأتها انقلبت إلى صورة رجلٍ ، تلتمع عيناه ببريق خاطف وقع على قلبها وقوعَ سِنان الرُّمْح ، ورأته وكأنْ قد امّحت من جبينه التّجاعيد ، ودلّت قَسَمَات وجهه على القوة والبأس ، حتّى لقد خُيِّل إليها أن هَيكل جسمه قد شمله التغيّر أيضًا ، فبدا فى عينيها رجلاً مَديد القامة عريض المنْكِبَيْن ، واسع الصدر ، مفتول الذّراعين .

ذهلت « ماروسيا » واستمرّت هنيهةً تنظر إلى « كنيش » نظرة العُصْفور المسحور ، وعندما أخذ يحدّثها لم تجد صوته صوت ذلك العجوز الذى كان حتّى قليلَ يَتَّضع للجندىّ ، ويتصنّع اللطف والظَّرْف والإيناس ، فشتان بين قيثارة الموسيقى العظيم ، وقيثارة المتسوّل الأعمى الذى يستندى أكفّ المحسنين . سمعته يقول لها :

— « صديقك يا " ماروسيا " يرغب أن يراك ، وهو غير بعيد من

---

(١) المدل : المفتخر .

هنا ، فهل تريدين أن تَرَيْه وتسمعى ما يَوَد أن يحدّثك به ؟ » .

تكفّلت عينا « ماروسيا » بالجواب ذلك أن الفرح كان قد طغى عليها فذهب بصوتها ، فلم يَخْفَ على « كنيش » أمرها فأشار إليها أن تتبعه فتبعته .

خرج « كنيش » بخطوات حازمة إلى ساحة الدار ، واتّجهت أنظار « ماروسيا » إلى كومة الأحجار المكدّسة ، إلى حيث كانت قد سمعت صوت صديقها ، ولكن « كنيش » لم يذهب إلى تلك الناحية .

سَرَّحَ « كنيش » بصره فى مختلف الجوانب والأنحاء ، ثم أطلق من فمه صفيرًا يعرفه كلبه الضّخم الذى كان مُقْعِيًا[1] عند باب الإصطبل ، فوثب وثوبَ النَّمِر ، وجاء يُبَصْبِص[2] بذنبه حول سيّده ، وينظر إليه بعينيه الذكيّتين ، فقال « كنيش » لذلك الحارس الأمين وكان يسمّيه « غراب » :

— « هل من غريب فى حوالى الدّار يا "غراب" ؟ »

فنبح غراب نباحًا خفيفًا خاصًّا كأنه يقول لسيده : اطمئن بالاً! » ثم أراد أن يُثْبِت لسيّده أن الأمن مستتبٌّ حول منزله ، فطفق يطارد الذُّباب ويصطاده ، فلو كان هناك أىّ غريب أو أىّ خطر يهدّد المنزل وساكنيه ، لما شغل « غراب » نفسه باصطياد الذُّباب لاهيًا متسلّيًا .

---

(١) أقعى الكلب : جلس على استه أى مؤخرته .

(٢) بصبص الكلب : حرك ذنبه .

فأمِنَ « كنيش » شرَّ الغوائل[1] ، وعاد هو و « ماروسيا » إلى المنزل فاجتازا حجرة الجلوس، ثم المطبخ ، ودخل هو والطفلة الصغيرةُ حُجرة المُؤَن والزَّاد ، مارَّيْن فى عُسْر وَمشقة بين أكياس الطحين والشعير والحبوب .

وكانت نوافذ هذه الغرفة كبيرة ، غير أن النور لم يكن يتسرّب إليها إلا خطوطًا رفيعة ، تحجبه عنها قِطَع اللحم المُقَدَّد ، وتِلال الثِّمار المجفَّفة من خوخ وتفَّاح وكُمَّثْرَى وأهرام من البَيْض، ومئات الزجاجات المملوءة بالشراب ، وعدد من براميل الزيت والخلّ والسَّمْن .

وقفت « ماروسيا » عند عَتَبة هذه الغرفة متحيِّرة ، لا تعرف كيف يمكن أن يَمْشى فيها المرء ، وهى على مثل ذلك الزِّحام من مختلف الأكياس والأكداس والأكوام ، فقال لها « كنيش » :

– « سيرى إلى الشمال » .

ثم أزاح بيدَيْه القويّتين أحد البراميل الثقيلة ، وضغط بقَدَمه على الأرض التى كان يحتلّها البرميل ، فانفتحت وبان لعينى « ماروسيا » سُلَّم صغير من الخشب يُفْضِي إلى سِرْداب من السَّراديب .

وتابع كلامه وقال :

– « انزلى من هذا السُّلَّم ، واحذرى أن تنزلق قَدَمُك » .

---

(١) الغوائل : جمع غائلة وهى الداهية .

وأقبلا يَهْبِطان معًا دَرَكات[1] ذلك السلّم الضيق الذى كان يطقطق[2] تحت أقدامهما .

لم تَلْحَظْ « ماروسيا » كيف انفتحت أرض الغرفة ، ولكنها لمّا رأت الظُّلْمة قد أحاقت بهما ، أدركت أن فَتْحة الممَرّ قد أُغْلِقت بعدهما ، وكانت كلّما أمعنت فى الهبوط ، شعرت بالهواء يزداد برودة ، ولا عَجَبَ فأشعّة الشمس لم تدخل قطُّ هذه المغارة العميقة .

وكان « كنيش » يأخذ بيد الطفلة فى المواضع الصعبة ، ويساعدها على الهبوط ، فلمّا هبطا آخر دَرَكة من السلّم ، أمسك بيدها وسارا معًا فى رُواق مُظْلِم أفْضَى بهما إلى ساحة مستديرة ينحدر النور إليها من بعض الكُوَى[3] فيضىء جَنَباتها .

وفى تلك السّاحة من المغارة كان رسول « ستش » يتمشّى بخطًا متمهّلة ، حتى إذا سمع وقع أقدام القادمين ، التفت إلى مدخل الساحة ينتظرهما ، فلمّا رآهما سارع إلى « ماروسيا » وانحنى يقول لها :

— «ماروسيا ! يا مستشارى الحبيب ! ما أسْعَدَنى بأن أراك وأبثّك

---

(١) دركات : جمع دركة وهو الدرجة إذا اعتبرت النزول لا الصعود ويقابلها الدرجة للصاعد يقال الجنة : درجات ، والنار : دركات .

(٢) طقطقت الدواب : صوّتت حوافرها . .

(٣) الكوى : جمع كوة وهى الخرق فى الحائط .

جزيل شكرى ! » . فاختلجت جوانح « ماروسيا » سروراً وقالت :

— « إنى لأقدُركم تألّمتَ وكم ضِقْتَ ذَرْعًا وأنت مختبئٌ تحت العَلَف ، ولكم جزعتُ أنا حين أحاط الجند بالمركبة ، وحين سمعت دوىّ القتال ، وحين تعثَّر هذا الجندىّ البَشِع النَّهِم بالحجارة التى تسُدُّ فتْحَة المغارة » .

فقال رسول « ستش » : « ما أوجستُ خِيفةً إلا على دليلى اللطيف ! »

واستدار « كنيش » يمسح دمعةً سخينة انسكبت من عينيه لما رآه من ذكاء هذه المخلوقة الرقيقة رقة النسيم ، وتفانيها فى خدمة بلدها .

ثم قال لضيفيه :

— « تعالَيا إلى ناحية أبعد فنكون فيها آمنين مطمئنَّين ! »

فأذعنا لنصحه ، ومشَوْا جميعًا شوطًا بعيدًا فى ذلك السِّرْدَاب ، يضيق بهم تارةً ويتّسع أخرى ، ويُظْلِم حينًا ويستنير حينًا آخر ، وكانوا كلما مَرُّوا بجانب مضىء ، بدت لأعينهم فيه سلالم قصيرة تؤدّى إلى منافذ خفية ، يستطيع بها سكّان السِّرْداب أن يقفوا على ما يجرى فى ساحة الدار والحديقة .

وعندما وصل « كنيش » إلى مكان يعرفه فى ذلك السِّرْداب ، قال يخاطب رسول « ستش » ويدعوه باسمه فى هذه المرة :

— « اختَر يا "شتشفيك" ما يحلو لك » .

وأشار إلى حُفْرة فى السِّرداب مملوءة بما تمتلىء به حوانيت بيع الملابس القديمة والسلاح وأدوات التنكر ، فانحنى « شتشقيك » فوقها ، وانتقى ثوبًا زريًّا [1] كان ولا شكَّ ثوب موسيقى متسوّل ، من أولئك الذين يطوفون بالمدُن والقُرَى ، ويعزفون للمارّة استجداءً لهباتهم ، وانتقى كذلك من هذا المخزن الحافل بكل غريب عتيق قيثارةً قديمة ، ولحية طويلة بيضاء ، ولِمَّة [2] وشاربَيْن فى مثل بياضها ، فلَبِس الثوب ، وتنكر باللِّحْية واللِّمة والشاربَيْن وقال ضاحكًا :

ــ « ها أنا ذا قد انقلبتُ عازفًا طاعنًا فى السنّ ، يعزف ألحانه على قارعة الطّريق [3] ، فلننظر الآن إلى شىء يصلح لعزيزتى "ماروسيا" ».

فقال « كنيش » وهو ينفض معْطفًا قديمًا :

ــ « وهل تصحبك "ماروسيا" ؟ »

فعزّ على « ماروسيا » أن يرتاب « كنيش » بها ، وأن يحسبها متقاعسةً عن مرافقة ذلك البطل ، حتى يبلغ نهاية المطاف من رحلته ، فتملّكها السُّخْط والغضب وقالت وهى عابسة :

ــ « ماذا يقول أبى ؟ بل ماذا تقول أمّى ؟ بل ماذا يقول هو وأشارت إلى " شتشقيك " لو أنى لم أذهب فى واجبى حتى غايته ؟ » فقال « كنيش » :

ــ « ولكن أتعرفين يا ابنتى إلى أين هو ذاهب ؟ أتعرفين أنه قد

---

(١) الزرى : الحقير . (٢) لمة : الشعر المتجاوز شحمة الأذن .

(٣) قارعة الطريق : أعلاه ومعظمه .

يجابه الموت فى رحلته ؟ أتدرين أنه ذاهب إلى مكان لا يضمن الإنسان أن يعود منه حيًّا يُرْزَق ؟» . فقالت « ماروسيا » وقد احمرّ وجهها خجلاً :

— « ألا أُعَدُّ إذن مثال الجُبْن إذا عرفتُ هذا وتركته ؟ » .

فصاح « كنيش » :

— « يا للطّفلة الباسلة ! تعالَىْ أقبّلك . عسى حفيدى "تاراس" أن ينشأ على مثالك ! » . فقالت « ماروسيا » :

— « لو كان "تاراس" فى مثل سنى لفعل فعلى ! أفلا تعرف يا سيِّدى أنه فى كل دقيقة وثانية يفكر كيف يطرد وحده أعداء "أكرانيا" ؟ » . فقال « كنيش » :

— « هذا صحيح . أجَلْ هذا والله صَحيح . فهو لا يفكّر على حداثة سنه إلا فى هذا ! » .

وكان « شتشڤيك » يقلب الملابس ويطيل تقليبها ، بَحْثًا عن ثوب تستطيع « ماروسيا » أن تتنكّر به ، فلم يعجبه منها شىء ، وكان كلّما أمسك بثوبٍ منها استنكر بشاعته ، وعزّ عليه أن تخلع « ماروسيا » ثوبها الجميل الذى ترتديه لتلبس مثل تلك الثياب الرثة المُنْكَرة .

ففحص كل ما وقع تحت عينه ويده من ملابس قد تصلح لقامة « ماروسيا » ، فازدراها كلها وقال فى نفسه : « ليس من المحتّم أن تتنكّر "ماروسيا" فى زِىّ متسوّلة بائسة » .

وكان قد رمى من يده ، آخر ما رمى ثوبًا مهلهلاً كان ولا شكّ

ثوب ابنة صغيرة فقيرة ، تستجدى المارّة ، وتكسب رزقها من تصدّق المحسنين ، فالتقطته « ماروسيا » وقالت :

— « يجب أن أظهر فى مظهر متسوّلة ، فهذا الثوب يصلح لهذه الغاية » .

وجرت إلى زاوية مُظْلِمة ، فخلعت ملابسها الجميلة ، وارتدت تلك الأسْمال[1] وانقلبت فى طَرْفَة عين ، من طفلة قروىٍّ ميسور إلى طفلة مسكينة مشرَّدَة ، فعندما رجعت إلى الرجلين باسمة العينين مسرورة الفؤاد ، تلوح على سيمائها العزّة والفَخار ، أكبر « كنيش » تلك الملامح وقال لها :

— « إنك تلوحين يا ابنتى فى سَمْتِ[2] أميرة صغيرة متنكّرة . . . يجب كذلك أن تستبدلى نظرات عينيك ، وتستعيضين عنها بنظرات الفقر والبؤس ، فمن يُعيرك إياها ؟ » فقالت « ماروسيا » :

— « الفقر هو الذى سيعطينى إيّاها . فمن يدرى ؟ فقد نتعرّض كذلك للموت جوعاً » .

وفى هذه الأثناء كان « شتشقيك » قد ارتدى ما ارتدى وأتمّ تنكّره ، فنظ إليه « كنيش » وقال يخاطب « ماروسيا » :

— « ما أجملَ هذا الشيخ وأجلَّه ! فهل هو جدّك يا "ماروسيا" ؟ » .

فقالت الطفلة :

— « إنه صديق " أكرانيا " . . . هيّا نرحل ! » .

---

(١) الأسمال : جمع سمل ، الثوب البالى . (٢) سمت : هيئة .

وكانت الفتاة قد طارت بأجنحة الخيال إلى مدينة " شيجيرين " ورأت نفسها تتسوّل على باب قصر الزعيم يقظة راقبة ، فى حين يكون صديقها منهمكًا فى العمل .

ومضى الرّجلان يتحدّثان ويستعرضان الأحوال ، ويجيب « كنيش » عمّا يطرحه عليه « شتشفيك » من أسئلة ، حتى قال يجيب عن سؤال أخير :

ـ « الآراء منقسمة انقسام الناس فى كل مكان ، وهذا ما يضرّ بالجهد المشترك ، فشُقّة[1] الخلاف واسعة ، وليس هناك أىّ اتّفاق على الوسائل ولا على الرجال ، ولعلّ حبّ الذات والأثرة[2] من أسباب ذلك ، والحقّ أن النساء أفضل منّا نحن الرجال ، فهنّ دائمًا متأهّبات للعمل النافع حيثما كنّ ، ولطالما ردّدْن مثل هذا القول : (أعيدوا " أكرانيا " للأكرانيين ثم تشاجروا فيما بينكم إذا شئتم ، واجعلوا شجاركم ونزاعكم بعد الإنقاذ لا قبْله) .

هذا ما تقوله لنا النساء ، وإنهنّ فيه لعلى صَواب ، ففى بلدنا الآن زعيمان قد تحولا إلى خَصْمَيْن ، كلٌّ يغار من الثانى ويرتاب به ، حتى ليودّ أن يلتهمه حيًّا ، هذا "والبولونيُّون" من ناحية ، والتّتَر من ناحية أخرى ، يُذْكُون[3] بينهما نيران الأحقاد ، فهم وحدهم المستفيدون من ذلك الشّقاق ، فهنيئًا لمن يستطيع أن يجمع على صعيد الوفاق هذه

---

(١) الشقة : المسافة . (٢) الأثرة : اختصاص المرء نفسه بأحسن الشيء دون غيره .
(٣) أذكى النار : أوقدها .

الأهواء الثائرة ! » . فقال « شتشقيك » :

— « يقال إن زعيمنا متهالك الصّحة عليلٌ مريض ، أفصحيحٌ هذا ؟ » .

— « لقد طعن فى السنّ ، ودَبَّت إليه الشيخوخة ، فضعف جسمه ، وشحب لونه ، فليس إلاّ السَّرَطان من يَجْمُلُ لونه على الهمّ والعَذاب والنار ! » .

— « والثانى ؟ » .

— « لا نسمع عنه إلا كل سوء » .

— « هل فى جانبه أحد من رجالنا ؟ » .

— « أجل إن "دوروشنكو" هناك ، ولكنه لا يفتأ يخبرنا أن من أشَقّ المِهَن مراقبة مثل ذلك الماكر ، فإن فكّرتَ فى زيارة هذا العُقاب ، فاذْكُرْ أن زوجته نَفْسٌ طيّبة صالحة ، فبين الأشواك نبتَتْ تلك الوردة ، غير أنها ضعيفة الإرادة واهنة العزم ، ثم اعْلَمْ أنّ لها شقيقة هى مثال الصَّلاح ونُبْل الخِلال وصدق الوطنية » . فقال « شتشقيك » :

— « إن زعيمنا فى "شيجيرين" هو إذن على ما تقول ، فريسة اليأس والقنوط » .

— « نعم إن اليأس يأكل قلبه أكْلَ النار للحطب » .

— « من مستشاره ؟ » .

— « لا مستشار له ، إنه وحيد كالنَّسْر الجريح » .

— « لا بأس ! يجب أن أرى كل هذا عن كَثَب . . . مكَّنني الله من أن أرْبأ الصّدْع [1] ، وأضمّ الشَّمْل ، وأجمع هذه القُوَى المتفرّقة ، فما على الله أمر عسير ! » .

وتطلعت « ماروسيا » إلى « كنيش » وصعّدت فيه أحلى نظراتها وقالت :

— « لى عندك رجاء كبير » .

— « تكلّمى يا ابنتى فماذا تبتغين ؟ » . .

وأخذ يدها بين يديه ، وأصْغَى إلى ما ستقوله ، وكان قلب « ماروسيا » يفيض بالشُّجُون ، فامتنع عليها الكلام أولا ، ولم تستطيع أن تنطق إلا بهذه الكلمات :

— « قل لأبى العزيز . . . قل لأمِّى الحبيبة . . . » .

ثم أسعَفَتها الدّمْع فسكبت عيناها العَبَرات الغزيرة وهى صامتة ، فنال دمعها من فؤاد الرجلين ، ولكنهما تركاها إلى شجونها تستعيد وحدَها هدوءها ورباطة جأشها ، فاستأنفت الكلام بعد قليل وقالت :

— « قل لهما إنه إذا قدّر لابنتهما "ماروسيا" أن تموت وألاّ تراهما ثانيةً ، فسوف تموت وهى تفكِّر فيهما وفى شقيقيها الصغيرين . . . سوف تموت وهى تفكِّر فيهم جميعًا وفى "أكرانيا" وفيمن جعلنى ابنته فى وقت المحن والتجارب . . . إنى أقبّل فى يدك يد والدى يا سيّد

(١) رأب الصدع : أصلحه والصدع : الشق فى شىء صلب .

"كنيش" وأستودعك الله شاكرة فضلك » . فقال لها :

— « رعى الله خطواتك يا ابنتى ، فإنما أنت مَلَك من ملائكة الله على الأرض ! » .

وغمر « شتشقيك » رفيقته الصغيرة بنظرة كلها حنان وفخار ، فلو أنه كان والدها لما زاد على نظرته تلك شيئًا ، ثم قال يخاطب « كنيش » :

— « أتعلم أن هذا العود اللَّيِّن الرَّطْب سيكون سَنَدى وعِمادى ؟ » .

فحنى « كنيش » رأسه ولسان حاله يقول :

إنّك لعلَى حقّ . ولم يسعه إلاّ أن يفكّر فى « تاراس » فقال فى نفسه : إن جفيدى لا يزال صغيرًا . . . ثم وضع القيثارة فى يد المتسولة الصغيرة وقال :

— « هيَّا . فقد آن أن ترحلا ، يجب أن أوصلكما إلى الطريق الذى ستسلكانه ، وأعود إلى المنزل قبل هبوط الليل » .

وقادهما إلى مدخل آخر من المغارة فخرجوا منه وساروا جميعًا فى عرض الطريق ، فلو رآهم راءٍ عند ذاك ، لما عرف فيهم أولئك الذين كانوا إلى وقت قليل فى السِّرْداب . فقد لاح « شتشقيك » موسيقيًّا شيخًا أحنت السِّنون والشيخوخة ظهره ، وطبعه البؤس بطابعه . وبدت « ماروسيا » المَرِحة الأنيقة ، متسولةً صغيرة بائسة . وعاد « كنيش » شيخًا متهدّمًا ثقيل الخطوات .

ومشوا جميعًا صامتين كأنّ على رؤوسهم الطير ، فرّت بهم

فصيلة من جنود التَّتَر ، فما حَفَلَتْ[1] بهم ولا استرعوا انتباهها ، فقد سارع العازف الشيخ فجلس فوق العشب ، وتناول القيثارة من «ماروسيا» وشرع يُمِرّ أنامله على أوتارها ، ويُغَنِّى بصوت ضعيف أغنية قديمة رتيبة اللحن ، وجلست رفيقته الصغيرة على مَقْرُبة منه ناعسة الجفون ، كأنّ الأغنية قد ناغتها[2] فكادت تنام ، أما « كنيش » الفلاّح العجوز فكان يسمع الغناء مطأطئ الرأس ، وبقى هؤلاء الثلاثة على مثل هذه الحال ، حتى توارى آخر جندىّ من الفصيلة وراء سَحاب من الغُبار .

فنهضوا عندئذ ، فتصافحت أيديهم ونظراتهم للمرّة الأخيرة ، وكانت كلمة الوَداع هذه الجملة التى نطقوا بها واحدًا بعد آخر : « كلّنا للوطن ! » .

وافترقوا على هذا الوَداع ، فعاد « كنيش » أدْرَاجه ، وسار الآخران إلى الأمام . . .

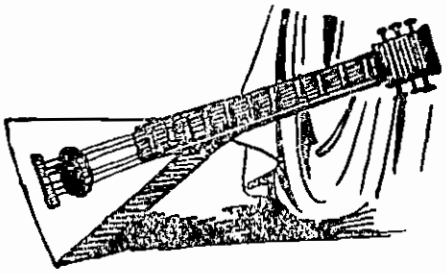

(١) حفل به : بالى واكترث . (٢) ناغى الصبى : كلمه بما يعجبه ويسره .

٥

مشى الموسيقىّ العجوز ورفيقته الصغيرة ، متّجهَيْن إلى الغَرْب قاصدَيْن مدينة « شيجيرين » ، وما زالا يجدّان فى السَّير حتى غربت الشمس وراء الأفق ، وبدأت العَتَمة تنتشر ، فرأيا على مَرْمَى البصر منهما ، مُعَسْكر الأعداء . وقد ضُرِبت فيه الخيام ، وتدرَّجت على التّلال الزّاهرة من القِمة إلى السَّفْح .

وعندما كثف الليل قليلاً ، لمح العازف ورفيقته خيمةً من الخيام ينبعث منها نور باهت ، وكانا كلّما تقدّما فى سيرهما طرقت مسامعهما بعض الأصوات الخافتة من مثل سلاحٍ يُنْقَل ، أو صدرٍ يتنهّد ،

أو ضَحِك يُكْتَم ، أو عبارات تتقطَّع .

وطيَّر أحد الحُرَّاس نبأ العازف العجوز والطفلة ، فتعالت ضَجَّة خفيفة في ذلك المحيط الهادئ صاح الحارس على أثَرها : « من القادم ؟ » فلم يَرْهَب المغنِّي الجوَّال صرخة الحارس ، ولا أقلقته رؤية الجنود ، فاستمرَّ يخترق المعسكر في ثقةٍ وأمان غير خائف ولا وَجِل[1] .

فتقدَّم إلى جماعة من الضبّاط كانوا يتحدّثون عن أمجادهم في المعارك ، فحيَّاهم تحية ملؤها التَّوقير والإجلال ، وسألهم في سذاجةٍ وخُشوعٍ هل يرغبون أن يَعْزِف لهم بعض الألحان ويُسْمعهم بعض الأغاني . فقبل الضبَّاط اقتراحه عن رضًى وطيبِ خاطر ، فقد كانوا في حاجة إلى قليلٍ من المرَح واللهو .

وما كادوا يستمعون له ، حتى قرّروا فيما بينهم وبين أنفسهم أن الشيخ عازف ماهر ومغنٍّ قدير ؛ فأقبلوا يُنْصِتون إليه في طرب وسرور ، وانتقلوا على أجنحة الغِناء والنَّغَم من وادِي الهُموم إلى وادِي الأحلام .

وكانت أنغام العجوز تدور على التغني بالأسرة والطفولة والشّباب ، فهزّت السامعين هزًّا عنيفًا ، فتمثلوا مساقط رؤوسهم ، ومنازلهم الحبيبة ، وذكروا أن الحرب ليست هي كل الحياة . فدمعت العيون ، وعُصِرت القلوب ، وخفَقَت الصدور ، حتى إذا سكت المغنِّي العجوزُ مُدّت الأيدي إلى الجيوب لتخرج منها قِطَع النقود فتنفح بها العازف

(١) الوجل : المستشعر بالخوف .

الشيخ . فخلع أحد الضباط قُبَّعته ، وقدَّمها إلى « ماروسيا » وهو يقول لها :

ـ « خذى أيتها الساحرة الصغيرة هذه القُبَّعة واجمعى بها النقود لأبيك » .

فلم تتحرّك الطفلة الصغيرة من مكانها ، فغناء صديقها كان قد نَقَلَهَا هى أيضًا إلى وادى الأحلام . وصاح بها ضابط آخر :

ـ « هلاّ اقتربت أيتها المتوحّشة الصغيرة ! » .

وبدأ بعض الضباط يُهَمْهِمُ[1] مستاءً ، فقال العازف العجوز يخاطب « ماروسيا » :

ـ « يجب أن تشكرى هؤلاء السادة الأفاضل يا ابنتى ، فمُدِّى يدك لهم » . فارتعدت « ماروسيا » ولكن أطاعت كلام العازف ما دام قد أمرها بما أمر .

كانت يدها ترتجف وهى تتلقَّى الهِبات ، وكانت نقود الأعداء تَحْرُق أصابعها فقال أحدهم :

ـ « هذه الطفلة الصغيرة جميلة وربى ! » . وقال آخر :

ـ « لها عينان كأنَّهما كوكبان » . وقال ثالث :

ـ « سأتزوجك يا صغيرتى عندما تكبرين . لقد اتّفقنا » .

وهنا عاد الشيخ إلى العزف ، فأعرض القوم عن الطفلة الصغيرة ، وأنصتوا إلى نغمات القِيثارة وغناء الشيخ .

---

(١) همهم : تكلم كلاماً خفياً .

وعَمَدَ العجوز فى هذه المرّة إلى ضَرْب آخر من الأغانى فأسْمَعهم هذه الأغنية :

إنْ تَكُنْ شَيَّدْتَ يَا عُصْفُورُ بَيْتَكْ
فِي جِوَارِ النَّهْرِ فَاهْرُبْ مِنْ دِيَارِكْ
رُبَّمَا فَاضَ فَسَاقَ الْمَوْجُ مَوْتَكْ
وَرَمَى فِي جَوْفِهِ كُلَّ صِغَارِكْ

* * *

ضَرَبَ الْمَوْجُ بِكَفَّيْهِ الضِّفَافَا
فَتَمَحَّى الْعُشُّ وَعَفَّى أثَرُهْ
وَمَضَى يَجْرُفُ أفْرَاخًا لِطَافَا
فَبَكَاهَا الرَّوْضُ حَتَّى حَجَرُهْ

* * *

وَعَلَى الأيْكِ أبٌ يَبْكِي وَ أُمّ
تَشْتَكِي لِلدَّوْحِ ظُلْمَ النَّهَرِ
يَرَيَانِ الزُّغْبَ يَطْوِيهَا الخِضَمّ
وَيَسُوءَانِ بِدَفْعِ الْخَطَرِ

هزّت الأغنية هؤلاء الجند العُتاة[1] الغِلاظَ الأكباد ، فلم

(١) العتاة : جمع عات ، المتكبر المتجاوز الحد .

يتمالكَ نَفَرٌ منهم عن البكاء والنحيب .

بكَوْا ولم يذكروا أنهم كانوا بالأمس عواصفَ عاتِيَةً هائجة ، يدمّرون ويقتلون ، ولا يحسبون لبنى البشر حسابًا ، وهاهم أولاء عندما سمعوا الغِناء واختلجتْ له جوانحهم ، ذكروا أنهم أناسى [1] من لَحْمٍ ودَم ، تجرى فى ضلوعهم عواطف الإنسان .

وبعد سكوتٍ قصير طلبوا من العازف مزيدًا من الأنغام والأغانى ، فامتنع أولاً ثم قال لهم :

— « أخشى ألاّ تروقكم الأغنية التى تتردّد فى خاطرى ، إنها أغنية حزينة قاسية » . فقال أحد الضباط ، وكان طويلَ القامة ، نحيفَ البدَن ، صارمَ الوجه عابسَه :

— « مِهْنتنا تجفّف منا المآقى [2] فلا تَخْشَ أن تبلّلها » .

فقال المغنّى العجوز :

— « أصْغُوا إليها إذن ما دمتم تُصِرُّون على سَماعها » .

وانطلق يُنْشِد على نَغَمات القِيثارة هذه الأغنية :

كَانَ فِي سَالِفِ الزَّمَنْ وَطَنٌ حُبَّ مِنْ وَطَنْ
دَقَّ حَتَّى كَأنَّهُ عَنْدَلِيبٌ عَلَى فَنَنْ

(١) أناسى : جمع إنسان ويطلق على أفراد الجنس البشرى . وجمع الإنس واحده الإنسى وهو غير الجن والملك .

(٢) المآقى : جمع مأق ، مجرى الدمع من العين أى طرفها مما يلى الأنف .

كُلُّ مَا فِيهِ سَاحِرٌ كُلُّ شَيْءٍ بِهِ حَسَنْ
يَفْتَدِيهِ بَنُوهُ بِالْـ ـمَالِ وَالرُّوحِ وَالْبَدَنْ

* * *

نَضَّرَتْ أَرْضَهُ الْجُدُودْ فَزَهَا فِيهِ كُلُّ عُودْ
وَرَعَتْ كَفُّ غَيْدِهِ مَغْرِسَ السَّهْلِ وَالنُّجُودْ
فَتَلَالَتْ رِيَاضُهُ بِالرَّيَاحِينِ وَالْوُرُودْ
وَجَرَتْ فِي جِنَابِهِ أَعْيُنُ الْخَيْرِ وَالسُّعُودْ

* * *

عَاشَ أَهْلُوهُ فِي سَعَهْ وَسَلَامٍ وَفِي دَعَهْ
فَرَنَا جَارُهُمْ لَهُ طَامِعًا فِيهِ مَطْمَعَهْ
يَنْظُرُ الْخِصْبَ مُشْبِهًا بِالسَّمَاوَاتِ أَرْبُعَهْ
فَتَمَنَّى لَوَ انَّهُ خَاتَمٌ زَانَ إِصْبَعَهْ

* * *

فَغَزَا ذَلِكَ الْبَلَدْ ظَالِمٌ سَاقَهُ الْحَسَدْ
جَاءَهُمْ فِي فَيَالِقٍ تَقْتُلُ الشَّيْخَ وَالْوَلَدْ
فَتَلَقَّاهُمَا أَهْلُهُ أُسْدًا بَعْدَهُ أُسَدْ
وَقَضَوْا فِيهِ بَعْدَمَا غَلَبَ الْقُوَّةَ الْعَدَدْ

* * *

أَيُّ إِثْمٍ وَمُنْكَرٍ سَابِقٍ أَوْ مُؤَخَّرِ
قَارَفَتْ أُمَّةٌ زَهَتْ بِحِمَاهَا الْمُصَغَّرِ

قُلْ لِمَنْ عَزَّ فى الْوَرَى   بِخُيُول وَعَسْكَرِ
يَا كَبِيرًا بِبَطْشِهِ   سَوْفَ تُبْلَى بِأَكْبَرِ

أثارت هذه الأغنية الجدال بين الضباط ، فمنهم من سمعها سماعًا بَريئًا فلم يُعْنَ إلاَّ بألحانها وإيقاعها ، ومنهم من تراءَتْ له فى معانى تلك الأغنية صورة أمّته المعتدية واضحةً ظاهرة . فقال الضابط الذى شكا منذ قليل من جَفافِ مآقيه :

— « يا للشّيطان ! إن هذه الأغنية القديمة العَهْد مَغْمَزٌ لنا ، أفتُرى هذا المغنّى العجوز قد أدرك ذلك ؟ حقًّا إن العالَم لم يتغيّر منذ عهد هذه الأغنية القديمة حتى اليوم ! » . فقال ضابط شابّ :

— « لم يخطىء هذا المغنى فى تذكيرنا بحالنا الرّاهنة ، ولكن أىّ جَدْوَى لهذه العِبْرة والعِظة ؟ لقد صدرتْ إلينا الأوامر فلا بُدّ أن نمشى قُدُمًا إلى غايتنا ! » . فقال ضابط آخر :

— « ممَّ يشكو أهل هذه البلاد ؟ وما معنى قولهم : — " أكرانيا للأكرانيين " يا للجنون أحَسِبونا أغوالاً ستلتهم بلادهم ؟ أيسوءهم أن يكونوا جزءاً من دولة عظيمة ، بعد إذ كانوا فئةً قليلة لا شأن لهم ولا وزن ! » . فقال الضابط الأول :

— « لا تتفرّقوا فى مذاهب الرّأى ، فلو كنا مكانَهم لحذَوْنا حَذْوهم[1] ، فما من أحد يرضَى أن يخضع للقوة والجَبَرُوت ، قد

(١) حذا حذوه : امتثل به .

تقولون لى إنهم بعد مائة عام ، سوف يَنْسَوْن هذا ولن يفكّروا فيه ، ربّما صحّ قولكم فيمن يولد ويعيش بعد مائة عام ، أما هؤلاء الذين أحْرِقت اليوم منازلهم وأكواخهم لأنهم أرادوا أن يدافعوا عنها فأمرهم يختلف . » فقال آخر :

— « إن الشّعوب الصغيرة لا حقّ لها فى الحياة على هواها ، فيجب ألاّ يكون فى العالَم إلا دول عظيمة تقوم بأعمال عظيمة » .

فقال الضابط الأول :

— « أن يحيا الإنسان حُرًّا فى بيت صغير يمتلكه ويرعاه ، أمرٌ من أجمل الأمور لا يختلف فيه أحد » . فقال ضابط شابّ آخر :

— « أيكون حب الوطن فضيلة مقصورة على الأمم الكبيرة ، مجرّدة منها الأمة الصغيرة ؟ » فقال له ضابط كهل :

— « كلامك عين الصواب ، فكل شىء كبير هو عُرْضة فى النهاية للتفكّك ، وإنى لأخشى فى بعض الأحيان من عظمتنا وكياننا الضّخْم ، ولا سيما أن الأنباء الواردة إلينا من الوطن لا تبعث على الرّضا ، فالفِتَن مندلعة اللّهَب فيه ، والقوّاد يتنازعون ويقتتلون ، والبلاد التى دوّخناها واجتَحْناها فى الشرق والغرب قد هبت تتمرّد وتشقّ عصا الطاعة . . . » . فقال الضابط الشابّ :

— « على نحو ما يفعل هؤلاء الأكرانيّون . . . » .

وعلى مثل هذا دارت أحاديث الضباط حُرَّة صريحة ، يُعْرِبون

بها عمّا يخالجهم من خواطر ويجول بأذهانهم من آراء ، وإنها لصراحة يعرفها حقّ المعرفة من عاش فى ثُكنَة الجند ، فالنظام العسكرىّ لا تخضع له إلاّ الأجساد ، أمّا الألسنة فحُرّة طليقة لا تخضع لنظام من الأنظمة .

وعاد هؤلاء الضبّاط إلى الحديث عن المعركة التى نَشِبَت ليلة أمس وفى ذلك الصباح ، فقال أحدهم :

— « إن هؤلاء القرويّين يقاتلون قِتالَ الأبطال » .

فردّ عليه ضابط مربوط الذراع :

— « بل قتالَ أبالسة الجحيم ، فلو كان لهم قوّاد محنّكُون ، وكانوا مدّربين على القِتال لما استطعنا التغلّب عليهم » . فقال آخر :

— « والله إن الموت بضَرْبَة مِعْوَل مِيتَةٌ كريهة على الجندىّ المحارب ، فمن كان يظنّ أن قائد فصيلتنا سَيَلْقَى حَتْفَه[1] بمثل ذلك السِّلاح ، ولعلكم تذكرون أنه عندما سقط صريعًا صاح قائلاً : « لو طَعَنَةُ رُمْحٍ أصابتنى » فيا لهذه الحرب الشنيعة ! إن الجِراح التى تُصيبنا فيها جِراحٌ قَذِرة يَعْجِز الأطباء عن إدراك كُنْهِها . . . فكم من جريحٍ وكم من قتيلٍ ! إننا نحارب ذئابًا جائعةً ضارية فلا تكاد نظنّ أننا قضينا عليها حتّى تنهض ثانيةً وتُشْبِعنا نَهْشًا وعَضًّا ، فلو خُضْنا غِمار معركتين أخريين كهذه التى خُضْناها ، ولم يُنْجِدنا

(١) الحتف : الهلاك .

المَدَد ، دارت علينا الدَّوائر ! »

فقال ضابط عجوز :

ــ « لو أنَّ جنودنا كانوا يقاتلون مقاتلةَ هؤلاء النَّاس . . . » .

فقاطعه جنديٌّ جريح وقال :

ــ « لو كانوا يدافعون عن نسائهم وأطفالهم وبيوت آبائهم ، لقاتلوا مثلَ ذلك القِتال ! » . وكان الجنديُّ الجريح شاحبَ اللون خائرَ القُوَى فبذل جهداً كبيراً لينهض قليلاً ويَجْبه رئيسه بتلك الحقيقة ، ولكنه انقلب مَيْتًا قبل أن يسمع الجَواب .

ولم يَفُت المغنى العجوز شيء من تلك الأحاديث ، فبدا له أنه قد سمِع ما فيه الكفاية ، فتناول قِيثارته وأخذ يَعْزِف عليها لحنًا مَرِحًا جميلاً ، ويُغَنِّى على ذلك اللحن أغنيةً تَرْوِى قصَّة فتاة شابة ، باعت رِداءَها لتشترى بثمنه تِبْغًا حملته إلى خطيبها الجنديّ ، فى حين كان الرَّصاص ينهال على ساحة القِتال انهيالَ البَرَد :

لِمَ بَاعَتْ رِداءَهَا الْحَسْنَاءُ	حِين تَخْتَال بالرِّدَاء النِّسَاءُ
وَمَشَتْ بِالْخَفِيفِ من بُرْدتيْها	عُرْضَةً للَّذى تَجُرُّ السَّمَاءُ
أفَظَنَّتْ شَبَابَهَا الغَضَّ دِرْعًا	تَتَّقِيهَا إذَا اسْتَبَدَّ الشتاءُ
لَمْ تَبِعْهُ غَبَاوَةً أوْ دَلالاً	بَلْ حَدَاهَا إلى المبيعِ الْوَفَاءُ
فَاشْتَرَتْ بالرِّداء تِبْغًا وسارَتْ	حَيْثُ ضَمَّتْ حَبِيبَهَا الهيْجاءُ

تَقْحَمُ النَّارَ والحَدِيدَ وَتُزْرِى ... بالْمَنَايَا تَصُبُّهَا الأعْداءُ
سَلَّمَتْهُ التبغَ الثَّمينَ وقَالَتْ ... إنَّ هذَا مَا تَشْتَهِي وَتَشَاءُ
دَخِّنِ التبْغَ وانفُثِ الهَمَّ فِيه ... يَتَبَدَّدْ وَيَبْتَلِعْهُ الْفَضَاءُ
ثُمَّ أحْرِقْ عَدُوَّنَا وأبِدْهُ ... مِثْلَمَا يَحْرُقُ الدُّخانَ الصِّلاءُ

طَرِبَ القومُ لهذه الأغنية وهلَّلوا ، وأخذوا يلوحُون بأيديهم متَّبعين نغمات الإيقاع ، ثم صاحوا جميعًا ما أبْرَعَ هذا المغنِّى ! وما أجْمَلَ الألحان التى تبتدعها قيثارته ! من كان يظنّ أننا سنقضى مثل هذه السّهْرة الجميلة الممتعة ؟

وأنشد العجوز بِضْعَ أغان أخْرَى من صِنْف هذا الضَّرْب من الأناشيد المَرِحة المطربة ، فاجتمع عليه الجند من كل أطراف المعسكر ، وقد أخذتهم نَشْوَة النَّغَم وهِزَّة الطَّرَب ، ثم نهض يودّع ذلك الحَشْد الغفير من الأصدقاء ، ويستأذن فى الانصراف . فقال أحدهم :

— « ابْقَ معنا ولا تكن عنيداً . . . ابْقَ حتى الصباح ، فالليل بارد والطريق غير أمين . . . »

ولم يُغْنِ هذا الإلحاح فَتِيلاً (١) ، فقد أصرّ المغنى العجوز على الانصراف وقال ضاحكًا :

— « على المغنِّى الجَوّال أن يطوف ويجول . . . » .

وتوارَى هو والطفلة وراء ظلام الليل ، فقالت له «ماروسيا» بعد قليل :

---

(١) لم يغن فتيلا : لم ينفع لم يغن شيئاً بقدر الفتيل وهو ما فتلته بين أصابعك من الوسخ.

— « سمعت ثلاثة ضبّاط يقولون : « إن المعركة الأخيرة كانت من الشدّة والقَسْوة ، بحيثُ لن يستطيعوا مهاجمة مدينة "شيجيرين" قبل مُضِيِّ رَدَحٍ [1] من الزّمن » . فقال « شتشقيك » :

— « أجل ، لقد سمعتُ ذلك » .

* * *

مشَتْ « ماروسيا » وصديقها مسافةً طويلة دون أن يتبادلا كلمةً من الكلمات . وكان الوقت فى إحساس « ماروسيا » يطير طيَرانَ العصافير السَّريعة ، وكان قلبها ممتلئًا حماسةً ونشاطًا .

أمّا صديقها فلا بُدّ أن يكون مسروراً مغتبطًا ، فحَفْل الغِناء الذى جَرؤ أن يقيمه فى المعسكر قد أطْلَعه على أشياءَ كثيرة ، فبينما كانت أذناه ترْهِفان السَّمْع كانت عيناه تُشاهِدان وتقدّران ، وكانت خواطره تقول له :

« إن تغَنّى الغالب بانتصاره ، فليس للمغلوب أن يَنْدَم على جهْدٍ بذَلَه . آه ! ليتَ الحزبين القائمين فى البلاد يوحدان جهدهما ، إذن لاسْتَطاعا أن يواجِها العدو على أملٍ من النصر ، وإن يكن الصِّراع غير متكافئ الجانبين . . . إن سَيْر الأمور مرهونٌ بما سوف يراه فى مدينة "شيجيرين" ولكن يجب أن يصل إليها أولاً » .

---

(١) الردح : المدة الطويلة .

سَرَى[1] المسافران ساعات طويلة فى الليل البهيم ، حتى لاحت لأعينهما على البُعْد نُقَطٌ حمرٌ قليلة ، فأدركا أنها الأضواء المنبعثة من مصابيح المنازل .

وشعر «شتشقيك» بالكآبة توشّح تلك المدينة المُظْلمة ، فقد تباعدت فيها الأضواء باهتةً متراقصة ، وجلّلها الصمت الرّهيب ، ولكنه كان صمت الانتظار المتحفّز لا صمت الرُّقاد الهنيء .

وبدا له أن الظلمة التى تتوارى وراءَها مدينةُ « شيجيرين » لم تكن عَفْواً ، فقد تعمّد أهلها أن يتستّروا بالظلام وألاّ يوقدوا فيها الأنوار السّاطعة حتى لا يَكْشِفوا للعدو عن مواقع مدينتهم .

اقترب « شتشقيك » و « ماروسيا » من باب المدينة ، فاستغربا ألاّ يجدا عنده أحداً من الحُرّاس .

كان الرّتاج مُغْلَقًا ولكن الباب الصغير كان شِبْه مفتوح ، فدفعاه ودخلا منه فلم يقفهما أحد ولا سألهما عن شأنهما سائل . أهُوَ فَخٌّ منصُوب لطلائع العدو ؟ قد يكون ذلك .

على أنهما رأيا وهما يسيران ، أنّ نَفَراً من الرجال قد برزوا فجأة من حولهما ، وأخذوا يصوّبون إليهما الأنظار .

فدنا « شتشقيك » من قوزاق شابّ كان مستنداً إلى سُور إحدى الحدائق وقال له :

---

(١) سرى : مشى فى الليل . وسار : مشى فى النهار .

— « أصْغِ إلىّ يا أخى . . . أصْغِ إلىّ وتلطّف فدلّنى على الطريق المؤدّى إلى مَقَرّ الزعيم » .

فحيّاه القوزاق الشّابّ ، وأشار بيده إلى زُقاقٍ [1] قريب كانت نوافذ المنازل فيه خفيفة الضّوء وقال له :

— « سِرْ فى هذا الزُّقاق ، ثم انعطفْ شمالاً ، فتجد نفسك إزاء منزل زعيمنا العظيم » .

فشكره « شتشقيك » وسار هو و « ماروسيا » وفْقَ إشارة القوزاق ، فكانا بعد قليلٍ تِجاهَ مَقَرّ الزعيم .

لم يكن منزل الزعيم أكبر من بقية المنازل ولا أرْحَب ، ولا كان له ما يميّزه من سواه ، فلا حارس يحرسه ، ولا جنود تحفّ به ، فكل علاماته المميزة أنّ الضَّوْء كان ينبعث منه .

وبعث « شتشقيك » نظره يجُول وراء زُجاج إحدى النوافذ ، فلمَح رأس قوزاق طويل الشاربين أسْمَرَ البَشَرة [2] ، ورآه مستغرقًا فى التفكير لا يتحرّك ولا يريم كأنه قدٌّ [3] من الرُّخام .

فعَمَد إلى الباب يطْرُقه طَرْقًا رفيقاً ، وكرّر ذلك ثلاث مرّات ، فنهض القوزاق الذى كان قرب النافذة مثل قطعة صخرٍ لا تتحرّك ، ومضى يفتح الباب . فقال « شتشقيك » وهو داخل :

---

(١) الزقاق : الطريق الضيق يذكر ويؤنث . (٢) البشرة : ظاهر الجلد .
(٣) قد : قطع .

— « الأصدقاء فى نائى الدّيار يبعثون بتحياتهم إلى الزّعيم العظيم » .

فقال القوزاق صاحب الشاربَيْن الطويلين بلهجة مهذّبة :

— « إنى لعلَى يقين من أن الزعيم العظيم سيكون مسروراً من هذا التذكار الجميل شاكراً له » . فقال « شتشڤيك » :

— « هل أستطيع أن أمْثُلَ بين يدَى الزعيم العظيم ؟ »

فما هو أن نطق بهذه الكلمات ، حتى رأى الباب الذى يُفْضِى إلى الغرفة المجاورة قد فُتِحَ على مِصْراعيه ، وظهر منه الزعيم نفسه متّقد العينين كالجمر ، فوقف ساكتًا غير أن وجهه كان يتكلم ويقول :

— « من أين أقبلت ؟ ومن أرسلك ؟ وما الأنباء التى أتيتنى بها ؟ » .

فأدّى « شتشڤيك » التحيّة والإجلال ، وقال خاضعًا خاشعًا :

— « السّلام على الزعيم العظيم » .

وأدّت « ماروسيا » كذلك التحية وهى واقفة إلى جِوار صديقها ، فقال لهما الزعيم :

— « أهلاً بكما ومَرْحَبًا ، فأيّة أغنية ستنشدنا إياها أيُّها المغنّى القدير ؟ » .

وكانت نَبَرات الزعيم تُنبِئُ عن رجل تعوّد الأمر والنَّهْى ، وتعوّد الإدلاء برأيه فى غير ما حَرَج ولا مُداوَرة ، فقال « شتشڤيك » :

— « أية أغنية تختار أيها الزعيم العظيم ؟ فعندى من حَلَقات الأغانى سلسلة طويلة » .

فلم يجب الزعيم ، غير أن سكوته كان أفصح من الكلام فى التعبير عمّا يخالجه من الآلام فقال بعد قليل :

— « من أين أقبلت ؟ » . فقال « شتشقيك » :

— « من جزيرة " ستش "وقد جئت أحمل تحية الأبطال إلى الزعيم العظيم ! » . فقال الزعيم :

— « تعالَ معى إلى حجرتى » .

وتبع « شتشقيك » خطوات الزعيم ، ودخل هو و « ماروسيا » الغرفة المجاورة ، فرآها غرفة لا زخرف فيها ولا تزويق ، صُفَّت فيها مقاعد من الخشب غُطِّى بعضها بالبُسط والطَّنافس ، ولكن حفلَت جُدرانها بالأسلحة الثمينة يتألّق فها حديد البنادق والخناجر ، ورأى فيها مِنْضَدة مزدحمة بالأوراق ، تعدَّدت فوقها عصا القيادة .

وكان فى جانبٍ من جوانب أحد الجدران ، مِشْجَب[1] عُلِّقت عليه ملابس الزعيم العسكرية المطرَّزة بالذهب والفضّة ، والمرصَّعة بالحجارة الكريمة ، فكان بريقها يعكس على الغرفة لألاء جميلاً .

وكان فى زاوية من زوايا الغرفة سرير يدلّ مظهره على أنه لم يُوَفَّر قطُّ للمضطَّجِع عليه الراحة والاطمئنان ، وكان فوقه وِسادة بعيدة عن مَسْقَى الرأس ، تُشير فى جَلاءٍ ووضوح إلى قلق الرأس الذى كان يستلقى إليها طلبًا للنوم ولو لحظاتٍ قِصاراً .

---

(١) المشجب : خشبات موثقة توضع عليها الثياب وتنشر .

فقال الزعيم يخاطب « شتشقيك » مشيراً إلى أحد المقاعد :

— « اجلس على هذا المقعد » .

وجلس هو أيضًا وأخذت عيناه اللامعتان تنقل النظر بين « شتشقيك » و « ماروسيا » . فقال :

— « وفيمَ صحِبْتَ هذه الطفلة ؟ » . فقال « شتشقيك » :

— « ستكون صَمّاء خرساء فلا تكترث لها يا مولاى ، إن رأسَها كمٌ وردةٍ أماله التعب فهى فى حاجة إلى الرُّقاد » .

فنهض الزعيم ، وتناول من المِشْجَب معطَفًا ثمينًا ورماه إلى « شتشقيك » ثم أشار بيده إلى مقعد مغطًّى ببساطٍ غليظ ، فخفَّ «شتشقيك» يجعل من ذلك المقعد فراشًا وثيراً[1] ، ثم حمل الطفلة الصغيرة التى نال منها التعب كلَّ منال ، فأضجعها فوق المَقْعَد ، وغطّاها بالمِعْطف ، وهو ينظر إليها فى حنان يفوق حنان الأمّهات ، ثم قبّل جبينها هامسًا فى أذنها « كونى صمّاء خرساء » .

التحفت الطفلة بذلك المِعْطف الثّمين ، وسدّدت نظراتها غير عامدة إلى صديقها وإلى الزعيم ، فرأتهما قد جلسا إلى المِنْضَدة ، هذا تجاه ذاك ، ينير وجهيهما ضوءُ مصباحٍ وُضِعَ بينهما ، فقالت فى نفسها وهى تتأمّل صديقها مُعْجَبةً به مسرورة :

— « ما أعْظَمَ هذا الرجل ! وما أنْبَلَ فؤاده وأقواه ! » .

---

(١) الفراش الوثير : الفراش اللين .

وكانت إذا نظرت إلى الزعيم ، عصفتْ بقلبها الصغير أمارات الحزن البادية على وجهه ، ورثت لتلك التجاعيد التى رسمها الهمّ على جبينه المتألق بالفخر والوقار .

وأنصتت « ماروسيا » فترةً طويلة لحديث الرجلين ، إلى أن غلبها التعب فأغمضت عينيها إغماضَ الزهرة النّاعسة ، ونامت ملءَ جفونها ، وأصبحت حقًّا صَمّاءَ خَرْساء .

وافترّت شفتاها فى أثناء رُقادها عن ابتسامة لطيفة ، فقد رأت فى منامها منزل أهلها ، والحديقة المزدانة بأشجار الكرز ، وكحلت عينيها برؤية والدَيْها وأخوَيْها الصغيرين ، ورَهْط الأصدقاء والجيران ، ثم امّحت الابتسامة من شفتَيْها عندما لفّ ضَباب الحُلْم هؤلاء جميعًا وأخفاهم عن مقلتَيْها ، واستبدل بهم وُجُوهًا جديدة مقطّبة عابسة لم تعرفهم إلا منذ قليل .

وصحت على أثر هذا الحُلْم ، وارتفعت قليلاً من مَضْجَعِها ، وسرّحت طَرْفها فى أنحاء الغرفة فقالت فى نفسها :

— « إنهما ساهران لا ينامان ! » .

رأت « شتشقيك » لا يزال جالسًا إلى المنضدة ، مستنداً بكوعَيْه إليها ، مستسلمًا إلى الهدوء والرّزانة .

ورأت الزعيم واقفًا فى وسط الغرفة ، تدلّ ملامحه على السُّخْط والاستنكار ، ثم سمعته يقول بعد إذْ هدأت ثائرته قليلاً :

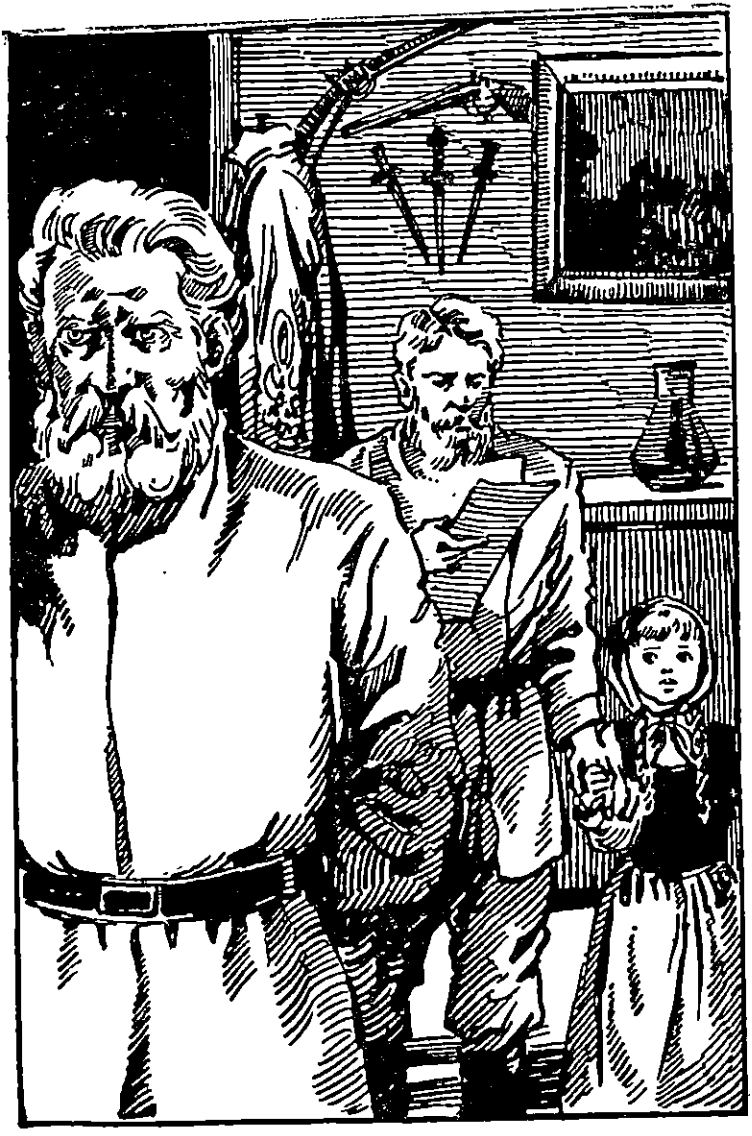

— « هذا إذن ما تريدون ! ولكن الدّواء سيكون أسوأ من الدّاء . . . أعرف أنى قد ألقيت بنفسى فى الماء دون أن أقدر بُعْدَ الشّاطئ ، ولكنكم إذا اعتمدتم على الزعيم الآخر فلن تصلُوا أبداً إلى الشاطئ ... إن بلادنا فى ضَعْفها وانقسامها على نفسها لأشْبَهُ ببيت مفتوحٍ للرِّياح ، وإن عدونا لَغَبِيٌّ أبْلَهُ إذا هو أشهر الحرب وشنّ الغارات علينا ، فما عليه إلاّ أن يستغلّ نزاعنا فتسقط البلاد فى يده سقوط الثمرة النّاضجة » .

فقال « شتشفيك » فى هدوء بارد :

— « ما سببُ هذا النزاع ؟ أليس السبب هو أن للسفينة رُبّانَيْن ؟ يجب توحيد القيادة فما من سبيل إلى النجاة إلاّ بهذا التوحيد » .

وأحسّ الزعيم أنه اكتوى بجمرٍ مُتّقد ، فدار فى الغرفة كالأسد الجريح ، ثم اتّجه إلى النافذة وفتحها وغرقت نظراته فى ظلام الليل .

وكأنما هواء الليل قد رَطّب حِدّته ، فرجع إلى المِنْضدة وجلس قُبالة « شتشفيك » وقال :

— « ألأنّى فى نظركم أحسن سيرةً وخُلُقًا ووطنيّة من ذلك الذى نصب نفسه زعيمًا ثانيًا ، تريدون أن أنزل له عن القيادة ؟ أتريدون منّى مثل هذه التّضحية لأنكم واثقون أنكم لن تظفروا بها من ذلك الذى قَطَعَ فى طريق الخيانة شوطًا بعيداً ! » . فقال « شتشفيك » :

— « نطلب منك هذه التضحية لنحولَ دون سيره فى طريق الخيانة

حتّى النهاية . . . إننا نعرف أنك أنبَل ُ ابنٍ نَسَلَتَهْ[1] " أكرانيا" وإننا لنَقْدُر عظمتَك وسموّ نفسك وجليل أعمالك ، وهذا ما حدانا[2] إلى أن نسألك النزول عن القيادة لذاك الذى أعْمَتْه الغَيْرة فرمَتْه فى أحضان التّتَر » .

– « إن أنا أجبتُك إلى ما تطلب أفلا يتّهمنى الناس بالخيانة ؟ . »

– « كلاّ فتضحيتك عَمَلٌ من أعمال البطولة سيتغنّى به القريب والبعيد والخَصْم والصديق » .

– « هَبُونِى ضحّيت بما تطلبون ثم باعكم ذلك التّعِس ! » .

فقال « شتشڤيك » فى سكون عظيم :

– « لَيُقْتَلَنّ قبل أن يرتكب جريمته . . . فى جِواره من رجالنا من لن يتركه يَشْرب كأس الخيانة حتى الثُّمالة[3] » .

وكان على المنضدة ورق وحبر وقلم ، فتناول الزعيم القلم وأدار « شتشڤيك » نظره إلى ناحية « ماروسيا » فقرأ فى عينيها ما يساورها من قلق وإشفاق على الزعيم ، فبادرها بابتسامة سكّنت جأشها وأشاعت فى نفسها الطُّمأنينة .

فلما فرغ الزعيم من الكتابة، قدّم الطِّرْس إلى «شتشڤيك » وقال :

– « إليك ما طلبت . . . فهل أنت راض ؟ » .

---

(١) نسل الولد : ولده . (٢) حدانا : دفعنا .

(٣) الثمالة : ما بقى فى الإناء أو الحوض من ماء وغيره .

قرأ « شتشقيك » الطِّرْس المكتوب وقال :

— « كلاّ لستُ راضيًا . . . فإنى لأبذل روحى عن طيب خاطر فى سبيل أن تُجْمَع المقاليد فى يديك ، ولكننى أهنئ " أكرانيا " بالتضحية التى أقدم عليها أنْبَل ابْنٍ من أبنائها ، فإن قُدِّر لنا أن نموت فى هذه المعركة ، فسوف يوشّح التاريخ ذكرك برَيْحان المجد ، ويكتب اسمك فى لوح الشرف والبَذْل والفَخار بأحرفٍ من نور . . . ».

وكان « شتشقيك » قد طوى الرسالة ، وخبّأها فى مقبض خِنْجر يحمله تحت ردائه وقال :

— « إنك لتضع بين أيدينا الورقة الوحيدة التى نرجو بها أن نَلُمَّ الشَّتات ونوحّد الوطن » . فقال الزعيم :

— « متى تسلّمه إياها ؟ متى يعرف أنى فى سبيل " أكرانيا " لن أتوانى عن أمرٍ من الأمور حتى عن القتال تحت لِوائه ، مُذْعِنًا لأوامره ، وإن كان غير أهل لأن يصدر وحده الأوامر ويضع الخُطَط ؟».

فقال « شتشقيك » :

— « سنقدّم له هذه الرسالة ثم نَسْبُر غَوْرَه[1] بعدها ، فكن على ثقة يا زعيمى بأنى سوف أمزّقها إذا رأيت أنها ستكون عديمة الجَدْوَى والفائدة » .

---

(١) يسبر غوره : يمتحنه . ويقال سبر الجرح أو البئر أو الماء . امتحن غوره ليعرف مقداره .

ونهض « شتشفيك » فقفزت إليه « ماروسيا » مأخوذةً بنبالة ذلك المَشْهَد الأخير فقال لها :

– « الثمي يدَ من كتب هذه الرسالة » . فقالت « ماروسيا » :

– « أنا أتحرّق شوقًا إلى ذلك » .

وأكَبَّت على يد الزعيم تلثمها ثم قالت :

– « كلّنا نحبّك يا سيّدى الزعيم لأنك تحبّ "أكرانيا" . »

فرافقهما الزعيم حتى باب المنزل ، فودّعاه وانصرفا ، وكانت آخر كلمة فاه بها هؤلاء الثلاثة « كلّنا للوطن » وبقى الزعيم واقفاً مستغرقًا فى التفكير .

توجّه « شتشفيك » و« ماروسيا » إلى باب المدينة ، فكانت الدُّروب مقفرةً تُطِلّ عليها من حدائق المنازل شجرات الكرز بزهرها الأبيض الجميل .

سار العازف المتنكّر ورفيقته حتى منعطف الزُّقاق ، فالتفتت « ماروسيا » تُلْقِى نظرةً أخيرةً على منزل الزعيم العظيم ، فرأت الزعيم لا يزال واقفًا فى مكانه يشيّعهما بنظراته فقالت لصديقها :

– « أيَقْوَى الزعيم على الدّفاع من مدينة "شيجيرين" ؟ »

– « لن يُسَلِّم المدينة وفيه عِرْق يَنْبض » .

فصفّقت « ماروسيا » طربًا وقالت :

– « كنتُ واثقة بذلك كل الوثوق » .

وتابعا سيرهما يخترقان الأزقة والساحات، فيظنها الغريب ساكنة هامدة وما هى بساكنة هامدة ، فكانا كلما اجتازا شقة من زقاق ، برز لهما من حيث لا يشعران ، رجال أشداء كانوا متوارين فى مخابئهم يرقبون ويتحفزون لكل طارئ ، حتى إذا لم تداخلهم عنهما الريب والشكوك تركوهما وشأنهما .

وعندما وصل المسافران إلى باب المدينة ، اعترض سبيلهما قوزاق عملاق ، لم يدريا من أين ظهر ، كأن الأرض قد انشقت ولفظته إليهما فقال للعازف :

— « أى طريق تسلك ؟ » .

— « طريق الشرفاء » .

— « وإلى من أنت ذاهب ؟ » .

— « إلى القوم الشرفاء » .

— « إنها كلمة لا تنطبق دائمًا على من يتصف بها ، فقد تقابل فى طريقك بعض الأشرار » .

— « من خاف من الذئب لم يجرؤ على التوغل فى الغابات ، ولا استطاع أن يجنى منها ثمر التوت البرى » .

— « لو كنت أنا رجلا جسورًا ، لسألتك أن تغنى لى يا سيدى الشيخ بعض أغانيك ، فإنى فتى يهيم بالغناء ، ولكننى أشد حياء وخفرًا من العذارى ، وهذا ما يجعلنى لا أقوى على الإلحاح » .

ورَغِبَتْ « ماروسيا » أن تتصفّح وجه ذلك العِملاق الحَيِيّ[1]، ولكن عاقَها عن ذلك طولُ قامته ، فلم تَرَ منه إلاّ شاربَيْه الطويلين المتدلِّيَيْن كحزمتين من الكَلأ ، فقال له « شتشفيك » :

– « أَهِبْ[2] بِشَجاعتك، وتغلَّب على الحَياء ، فماذا تريد أن أنشِدك ؟ »

– « أيّ أغنية تختار ! »

فغنَّى له بصوت خفيض مَطْلَع آغنيةٍ تقول :

أخِي إذَا اللَّيْلُ دَجَا[3] فَاسْهَرْ وَحَاذِرْ أنْ تَنَامْ
إنَّ ذِئَابَ الْغَابِ لاَ تَسْرَحُ إلاَّ فِي الظَّلاَمْ

فقال العِملاق الخجول :

– « أغنيتك تُعْجبني ، وهي تنطبق على حالنا الرّاهنة ، وإني لأسمح لك بالخروج . . . لقد تركتُك تدخل منذ ساعاتٍ ولم أعترض سبيلَك ، وعلّلت نفسي بأني سأعرِف نغمة صوتِك وأنتَ خارج ، فتمّ لي ما أردت » . فقالت « ماروسيا » وهي مغتبطة :

– « لقد كان إذن هنا يَحْرُس الباب . . . فأكْرِمْ وأنْعِمْ ! » .

وخرج « شتشفيك » و « ماروسيا » من مدينة « شيجيرين » ولاح لهما الطريق حيّةً سوداء تَزْحَفُ على بِساطٍ أخْضَرَ فسلكاه ،

---

(١) الحيي: الخجول. (٢) أهاب به: ناداه . (٣) دجا الليل: أظلم .

وودَّعتهما العصافير وهى تُغَنِّى بتغريدها الشَّجِىّ .

فقالت « ماروسيا » : إن « العَصافير تُغَنِّى للفجر » .

فقال « شتشڤيك » :

— « وتتغنَّى بالأمل ! » .

٦

مَرّ على لقاء « شتشقيك » وزعيم « شيجيرين » بضعة أيام قضاها المغنّى العجوز ورفيقته الطفلة فى التنقُّل بين المُدُن والقُرَى المحيطة بمدينة « شيجيرين » كأنّما كان صاحبنا يريد أن يستطلع شؤون أهلها، ويقف على حَرَكاتهم وسَكَناتهم ، ويَقْدُر مبلغ ثَباتِهم لو هاجمهم العدو ، فقد كانت تلك البِقاع هى البقيّة الباقية الممتنعة على جيش التَّتَر .

فلمّا ملأ جُعْبَة نفسه بما أراد ، سلك ورفيقته طريق العَوْدة ، واخترقا معسكر الأعداء ثانيةً ، يوزّعان تحيّاتهما على مَنْ كانا قد عرفا من الجُنْد والضبّاط ، ثم خرجا منه دون أن يعترض سبيلهما عائقٌ من العوائق .

وسار الرّفيقان نحو ساعتين حتى لاح لهما طريق مزرعة الصديق « كنيش » ولكن المغنّى العجوز مال منه إلى طريق آخر يُفْضِي بهما إلى نهر « دنيبر » العظيم .

غير أنه قبل أن يسلكه وقف واستوقف « ماروسيا » وسألها قائلاً :

ــ « أتريدين العودة يا « ماروسيا » إلى أهلك ومنزلك فالرّحلة ما زالت طويلة ؟ » . فقالت له « ماروسيا » متسائلة فى شىء من الألم :

ــ « إنى لفى غاية الشوق إلى أبى وأمّى وأخوىّ ، وإلى منزلنا والحديقة ، ولكن أما عُدْتَ فى حاجة إلىّ ؟ أفلا أستطيع أن أسْدِى إليك بعض العَوْن فى رحلتك ؟ » .

فقال لها « شتشقيك » فى حَنان تخالطه آيات الإعجاب :

ــ « إنّ لفى أشدّ الحاجة إليك يا مَلَكِي الصغير ، فوجودك معى يَدْرأ عنّى كثيراً من الرّيب والظنون ، ويسهّل علىّ التسرب إلى حيث أريد ، بَيْدَ أنى شفيقٌ بك مُشْفِقٌ عليك من المشقّة والخطر ! » .

فقالت له « ماروسيا » فى شىء من العِتاب :

ــ « ألم نتّفِقْ للزعيم حينما انصرفنا من حَضْرته " كلّنا للوطن " ؟ أفَلاَ أخدم الوطن إذا صحبتُك وعرّضتُ نفسى للخطر ؟ » .

فقال لها مأخوذاً بحَمِيّةَ هذه الطفلة العجيبة وذهنها الثّاقب :

ــ « أجَلْ يا "ماروسيا" كلُّنا للوطن! ولن يُغْلَبَ وطنٌ يكون أطفاله على مثلِ ما أنتِ عليه من حَماسةٍ وذكاء ... فتعالَىْ واصْحَبِينى

وشاطرِ بنى المخاطر والله يحرسك ! » .

ثم استأنف حديثه وقال لها وكأنه يشرح لها خُطَّة السَّيْر :

— « سنمشى فى هذا الطريق مهما طال ، حتى نبلغ ضَفَّة النهر ولا بُدَّ لنا أن نَعْبُر النهر إلى الضَّفة الأخرى ، ومنها نواصل السير إلى مدينة "جادياش" وهى فى أقصى الشرق من " أكرانيا" . »

فقالت له « ماروسيا » وهى تنظر إليه بعينيها الواسعتين ، تريد أن تستوعب كلماته حَرْفًا حَرْفًا :

— « كنت أعرف أن النهر لا يوصل إلى مدينة "شيجيرين" فهى بعيدة منه . أتذكر أنى قلت لك ذلك ، ليلة هاجم منزلنا جند العدو ، فتسلَّلتَ أنت منه ، ولحقتُ أنا بك ، وقد عزمت أن أصحبك إلى « كنيش » صديق والدى ، لأنك تعمل فى سبيل خلاص الوطن من العدو ؟ أمّا مدينة « جادياش » فما كنت أعرف أنه لا مناصَ من عبور النهر فى الوصول إليها » .

فقال « شتشقيك » وقد سرَّه أن يتبسَّط فى الحديث مع طفلة تتَّقد ذكاءً ووطنيّةً :

— « إن نهر "دنيبر" يا عزيزتى يخترق " أكرانيا " من الشمال إلى الجنوب ، ويشطرها شطرَيْن ، وفى كل شطرٍ منهما عاصمة وزعيم . أعرفتِ الآن يا "ماروسيا" لماذا ينبغى لنا أن نعبر النهر ، إذا ما شئنا الذهاب إلى الزعيم الثانى ؟ » .

فهزّت « ماروسيا » رأسها ، شأنَ التلميذ الذى فَهِمَ درس أستاذه وقالت :

— « نعم فهمت وعرفت . . . » . ثم أردف قائلاً :

— « وعلينا أن نعبره إلى جهة نائية قَفْراء ، وأن نتجنّب الجسور المقامة على بعض جداوله فى الشمال فهى ملأى بحُرّاس الأعداء ، وحَسْبُنا أننا سنلقى منهم عَدَداً على أبواب "جادياش" » .

فهزّت « ماروسيا » رأسها ثانيةً هِزّةَ مَنْ فهم الحديث ووعاه ، ولكنها لم تسأل محدّثها عن الوسيلة التى سيعبران بها النهر ، فقد كانت واثقةً بأن صديقها لن يعدم الوسائل فى تحقيق ما يبتغى .

ثم سلَكا بعد وقفتهما القصيرة طريق النهر ، لا يعرفان فيه هَوادَةً[1] ولا راحة ، فاقتربا فى مسيرهما ، من قرية دمّرها الحريق ، فدخلاها « وماروسيا » على حال يُرثَى لها من التعب والظَّمأ والإعياء .

جالا فى أنحائها فما وقعت أعينهما فيها إلاّ على أنقاض فوق أنقاض ، لا يزال الدُّخان ، يتسرّب من بعض حافاتها ، دلالةً على أن القرية حديثة العهد بالإحراق والتدمير .

وفيما هما يجولان بين الأطلال ، عثَرا على بئرٍ لم تمسَّها يد الحريق فقال « شتشڤيك » :

— « قليل من الماء البارد ينعشك ويقوّيك يا "ماروسيا" » .

---

(١) الهوادة : اللين والرفق .

فمَدّ يده إلى كيسٍ مُعَلَّق على كَتِفِه ، وأخرج منه كوبًا[1] من خشب ، وأزاح الأعشاب التى تغطّى فَتْحَة البئر ، فملأ الكوب بماءٍ باردٍ صاف ، وقدّمه إلى « ماروسيا » فشربته شاكرة .

وخطر لها بعد ذلك أن تنظر فى جوانبِ البئر ، فلم تَكَدْ تُطِلّ عليها برأسها ، حتى ارْتدّت عنها وقد تورّد خدّاها ، ولمعت عيناها ، وصاحت صيحةً خرجت من أعماق قلبها .

فماذا رأت فى تلك البئر ؟ وما الذى انتزع منها تلك الصيحة ؟ فنظرت إلى صديقها العظيم معتذرةً آسفةً فقال لها :

— « هوّنى عليك ، فما فى هذه القرية القَفْراء أحد فيسمعك . . . هيّا نتناول طعام العشاء إذا أحببت » .

فجلسا يأكلان ، وكان طعامهما يتألّف من الخبز والجبن والماء القَراح[2] .

ولكن لِنَعُدْ إلى تلك الصيحة التى صاحتها « ماروسيا » مغتبطة سعيدة ، فما سببها ؟ وأى كَنْز عثرت عليه « ماروسيا » فى تلك البئر ؟

لم تعثر البتة[3] على شىء من هذا ، فإنما عثرت فى فُوَّهة[4] البئر ، على إكليلٍ مجدول من زهر البنفسج النضير ، طالما جَدَلَ أهلها مثله ،

---

(١) الكوب : قدح لا عروة له . (٢) القراح : الماء الخالص .

(٣) البتة : و بتة وبتاتاً : قطعاً و بدون رجعة ولا عود .

(٤) فوهة البئر : فمها .

وعلقوه فى المنزل رمزاً إلى الفأل الحسن والطّالع الميمون، وطالما قطفت هى مثل تلك الزهرات من حديقة والديها .

كان ذلك الإكليل ، وقد وضعته فى ذلك المكان يَدٌ صديقة ، يقول للطفلة الصغيرة :

— « حال من تحبّين على ما يُرام ، وفكرهم يتبعك أنّى كنتِ » .

ويقول للمجاهد « شتشقيك » : « نفّذت أوامرك » .

تفاهمت « ماروسيا » وصديقها ، فأعرضا عن حديث الإكليل إلى أحاديث أخرى . فلما انتهيا من تناول الطعام قال « شتشقيك » :

— « هل استردَدْتِ قواك يا "ماروسيا" ؟ »

وكانت « ماروسيا » قد هبّت واقفة ، وعلّقت كيسها الصغير فوق كَتِفها ، ونظرت إلى « شتشقيك » وعيناها تلمعان لمعانَ النجوم ، فماذا عساهما يطلبان منه ؟

وقبل أن يغادرا المكان ، مدّ « شتشقيك » إلى البئر عصاهِ المعقوفة (١) واستخرج منها إكليل البنفسج وكان مبلّلاً قليلاً ، فنفَضَه فتساقطت منه لآلئُ الماء ، ثم وضعه على رأس « ماروسيا » فقالت له :

— « أتسمح لى بأن أحتفظ به قليلاً فوق رأسى ؟ » .

فقال لها صديقها الحميم :

— « أجَلْ . البسيه تلوحى به حوريّةً صغيرة » .

(١) عقف العود ونحوه : عطفه من طرفه وعوجه فانعطف وتعرج .

فدقّت « ماروسيا » يداً بيد، وكانت إذا صفّقت دلّت على مزيد اغتباطها وسرورها ، واستأنفا السَّيْر فى قوة ونشاط .

ومشيا شوطًا بعيداً تتقاذفهما السهول، وتتهاداهما الحقول والتِّلال ، حتى بلغا فى سيرهما هَضْبَةً عالية ، أشْرَفا منها على نهر « دنيبر » وقد لمعت صفحاته لمعَانَ اللُّجَيْن،(١) فأعجبا بهذا المنظر الساحر ، وامتدَّ بهما النظر إلى الضّفّة الثانية من النهر فرأياها متموّجةً بالتِّلال والبِطاح(٢) ، ينساب النهر فى محاذاتها ، ويُسْمَع لمياهه هديرٌ كهدير أمواج البحر ، فوقفا هُنَيْهَةً يتملّيان(٣) جمَال الطبيعة وسِحْر آياتها، ويسبّحان الله الخلاّق العظيم . فقال « شتشقيك » :

ـ « ألا ترَيْن معى يا "ماروسيا" أنّ هذا المَشْهَد السّاحر الفتّان جدير بشىء من الغِناء ؟ فما قولك لو نَفَحْتُ النهر ببعض أغانىّ ؟ »

فقالت « ماروسيا » فَرِحة مَرِحة :

ـ « نِعْمَ الرّأى رأيك ! تعال نجلس ونستسلم قليلاً إلى اللّهْو » .

فتناول « شتشقيك » قيثارته ، وبدأ يعزف ويغنى ، فرجّعت صَدَى نغماته السُّفوح والهِضاب ، كأنها تغنّى معه هذه الأغنية :

هَيَّا اتْرُكُوا سُهُولَنَا وَغَادِرُوا حُقُولَنَا

---

(١) اللجين : الفضة .

(٢) البطاح : جمع بطحاء ، سهل واسع فيه رمل ودقاق الحصى .

(٣) يتمليان : يتمتعان .

وَاسْتَغْفِرُوا الْقَدَرْ

أَتَحْسِبُونَ الزَّهَرَا يَعْرِفُكُمْ وَالشَّجَرَا
كَلاَّ وَلاَ الثَّمَرْ

إِذَا رَآكُمْ فِي ثَرَاهْ مُطَوَّفِينَ فِي رُبَاهْ
ذَبَلَ وانْتَحَرْ

فَاخْشَوْا مِنَ الْمَظْلُوم وَدَمْعِهِ الْمَسْجُومِ
كَالسَّيْلِ وَالْمَطَرْ

دَمْعٌ هَمَى مُتَّقِدَا وَسَوْفَ يَكْوِيكُمْ غَدَا
بِلاَ فَحِ الشَّرَرْ

خَافُوا إِذَا هَبَّ الْجَرِيحْ وَانْتَفَضَ الْقَلْبُ الذَّبِيحْ
مِنْ بَعْدِ مَا انْفَطَرْ

لَمْ تَقْتُلُوا إِلاَّ الْجَسَدْ مِنَّا فَفِي رُوحِ الْوَلَدْ
رُوحُ الأَبِ اسْتَتَرْ

يُنَمِّيَانِ الْحِقْدَا وَيَقْدَحَانِ الزَّنْدَا
لِلثَّأْرِ . وَالظَّفَرْ

وانتهى « شتشقيك » من أغنيته ، وظلت أنامله تُداعب أوتار القيثارة فى رفقٍ ولطف ، فى حين كانت عيناه وعينا « ماروسيا » لا تتحوّلان عن نهر « دنيبر » .

وعاد « شتشقيك » إلى الغناء فصَدَحَ بهذه الأغنية :

لَيْسَ فِي الْعَالَمِ أَشْقَى مِنْ بَنِي أَكْرَانِيَا
أُمَّةٌ سَاقَ إِلَيْهَا الدَّهْرُ جَارًا عَاتِيَا
يَهْدِمُ الدَّارَ وَيُقْصِي عَنْ حِمَاهُ الْبَانِيَا
يَا أَخِي لَا تَتْرُكِ الْمَغْنَى خَلِيًّا خَاوِيَا
إِرْثُ أَجْدَادِكَ بِعْهُ لِلْأَعَادِي غَالِيَا
مُتْ بِهِ حُرًّا وَلَكِنْ أَفْنِ فِيهِ الْبَاغِيَا
وَطَنُ الْأَحْرَارِ يَحْيَا بِالْعَوَالِي عَالِيَا

وردَّدت الجبال صَدَى ألحان هذه الأغنية ، وكان الغناء رسالة تنبئُ بعض الصّحاب بوصول « شتشقيك » إلى ذلك المكان .

وأحسّ القوزاق فى تلك اللحظة بحركة تنبعث من خلال القَصَب القائم على ضفّة النهر ، فحدّق إلى مصدر الصوت ، فلمَح خيالاً يجرى على صَفَحات الماء ، فتبينه فإذا هو زورق يسير إلى فُرْضَة(١) صغيرة ، نحتتها الطبيعة فى جانب من جوانب الضفّة ، ثم أمعَن النظر فى قائد الزورق ، فإذا هو رجل قوىّ ماهر فى التّجْديف(٢) ، يلبس قُبَّعة من جِلْد الماعز ويَمْرق على الماء مُروقَ السّهام .

---

(١) الفرضة من النهر : الثلمة ينحدر منها الماء وتصعد منها السفن ويستقى منها . والفرضة من البحر محط السفن .

(٢) جدف الملاح : ساق القارب بالمجداف .

فقال « شتشقيك » لرفيقته :

ـ « آن لنا يا "ماروسيا" أن ننحدر إلى الضفّة » .

فانحدرا معاً فى سرعة وخفّة ، يجتازان الدّروب الضيّقة ، ويلفّان حول الصخور المُعْشبة ، حتّى وصلا إلى الشاطئ فسمعا على الفور صوتاً لا يجهلانه يقول لهما .

ـ « أرجو أن تكونا فى صحة وسلامة ، وأن تكونا فى مَسْعاكما قد أرضيتما الله والوطن ! » .

وكان صاحب الصوت هو صاحب الزّورق ، وكان قد وصل به إلى الشاطئ فربطه ببعض الصخور ، ووقف يُحَيّى القادمين وقد أسْنَد ذَقْنَه إلى المِجْداف ... ولم يكن إلاّ الرجل الطيّب السيّد « كنيش » . فقال له « شتشقيك » :

ـ « فى صحة وسلامة وفوز مُبِين ! » .

فقفز « كنيش » من الزورق إلى اليابسة فى خفّة الطير ، فتعانق الرجلان فى شوقٍ ولَهَف ، واستدار « كنيش » بعد ذلك إلى « ماروسيا » وسلّط عليها نظرات عينيه الشبيهتيْن بعينى الصّقْر وقال :

ـ « وأنت كيف حالك يا ابنتى ؟ » . فقالت « ماروسيا » :

ـ « على خير حال يا سيّدى ! وكيف حال "تاراس" » .

فقال « كنيش » :

ـ « إنه لم ينس "ماروسيا" » :

وشاء « كنيش » أن يستوثق من حال « ماروسيا » وإن كان وجهها لنضير المشْرق يُنْبِئُ عن العافية والرّضا ، فنظر إلى « شتشقيك » متسائلاً مستوضحاً فقال هذا له :

ـ « رفيقتى على أحسن حال . . . أخْبِرْ بهذا أباها وأمّها ، وقل لهما إنها شِبْل وديعٌ وَداعةَ الحمام » .

ثم خاطب « ماروسيا » وقال :

ـ « لِيَهْنِكِ[1] يا "ماروسيا" أن أهلك فى خير وعافية » .

وأمّن « كنيش » على هذا الكلام ، وأشار إلى إكليل البنفسج الذى زانت به الطفلة رأسها وقال :

ـ « إن هذا الإكليل شاهدٌ عَدْلٌ على ما نقول ، فأنامل أمّك هى التى جَدَلته يا صغيرتى » . فقالت « ماروسيا » :

ـ « ما أحْلَى ماتقوله أنت ويقوله هذا الإكليل يا سيِّد "كنيش"! » .

فقال « كنيش » :

ـ « كَفَى . كَفَى . إنى أرى صفحات الماء ساكنةً رَقْراقة ، فلا رياح إلاّ النسيم العليل ، فهيّا إلى القارب » .

فقالت « ماروسيا » وهى تنظر إلى « شتشقيك » :

ـ « انقلنا يا سيّدى "كنيش" إلى الضفة الأخرى نكن لك من الشاكرين » . فتبسّم « شتشقيك » وقال « كنيش » :

---

(١) ليهنك : ليهنتك . هنيئاً لك .

ـ « هذا ما جئت من أجله يا صغيرتى ، وجعلنى أترقب عودتكما بفارغ الصبر » .

وخفّ « كنيش » إلى القارب فحلّ عُقْدة الحبل الذى يربطه بالصّخْر ، ومدّ ذراعه إلى « ماروسيا » فاستندت إليها ونزلت القارب ، وجلست حيث أشار « كنيش » ثم تبعها صديقها الحميم فقفز إلى الزورق فى خفّة ورشاقة ، وأمسك بالمِجْداف الثانى ، فانساب بهم القارب فوق لمياه الدّاكنة خفيفًا سريعًا . فلمّا بلغوا وسط النهر قال : « شتشقيك » مستفهمًا :

ـ « ما أنباء الزعيم الثانى ؟ » . فقال « كنيش » :

ـ « ستصلح الحال عندما تنتقل أنت إلى المعسكر الآخر . . . سترى هناك كثيراً من الأجانب والغُرَباء وَستشهد مجالى التَّرَف والسَّرَف ، ولسوف يتعذّر عليك أن تعرف رأى ربّ البيت فيما يصنع ويُسْتَصْنع ، ولعله لا رأى له . . . » . فقال « شتشقيك » :

ـ « ذلك شرّ مصير يُنْكَب به الإنسان ، فمن يملكه جميع الناس لا يملك نفسه » . فقال « كنيش » :

ـ « والزعيم الذى لقيته أنت ما شأنه ؟ » .

فقال « شتشقيك » :

ـ « إنه الرجل الرجل ، فلو كان جميع المواطنين مثله ، لأنقذنا

الوطن ولم نفقد من الأرض قيد أنملة[1] ، ويوم تمثل روح هذا الزعيم بين يدى الديان ، فسوف يعرف الملأ أى روح سكنت على الأرض هذا الجسد الفانى . . . أجل . إنه ليس بالرجل الكامل فله عيوبه وأخطاؤه ، ولكنه يحب وطنه فوق نفسه وحتى فوق كبريائه ... فقد رضى بكل شىء ، رضى أن يتوارى عن طريق ذلك الزعيم الجلف[2] ، وليس هذا بالأمر السهل ، فالمرء العالى الجبين ، العزيز النفس ، لا ينحنى ولا يطأطئ الرأس . . . ومع هذا كله فقد كتب الصك ونزل به عن الزعامة والرياسة » . فقال « كنيش » :

— « لنا أن نقول إذن إننا بعون الله وجليل مسعاك ، قطعنا نصف المرحلة إلى غايتنا وبقى علينا أن نقنع الزعيم الثانى ، ذاك الذى يجيد الدوران فى حلقة مفرغة » . فقال « شتشفيك » :

— « سندور معه ولكن بعد أن نوسع الحلقة » .

أما «ماروسيا» فكانت تسرح الطرف حولها وتبعث بنظراتها رائدة مستكشفة .

وعلى حين فجأة ، أشارت بإصبعها إلى ناحية من نواحى الضفة التى يقصدونها وقالت لصديقها الحميم :

— « ألا ترى هناك أحداً ؟ » .

فتكفل « كنيش » بالجواب وقال :

---

(١) قيد أنملة : مقدار أنملة . (٢) الجلف : الغليظ الجافى .

— « الطفلة على حقّ . . . إنهما هناك » .

وضاعف الرجلان حركات مجْدافيهما ، فانساب القارب خفيفاً بمن يحمل ، واستطاعت « ماروسيا » بعد فترة قصيرة أن تتبيّن رجلين واقفين فى المكان الذى أشارت إليه ، وأن تعرف فيهما الصديقين اللذين أوثقهما الجند فى منزل والدها ، وانهالوا عليهما ضرباً بالسّياط . . . إنهما « سمان فورشيلو » و « أندرى كروك » فسرّها كل السرور أن تعلم أنهما تمكّنا من الفرار .

وصل الزورق إلى حيث كان الرجلان من الشاطئ فانحدرا إلى القادمين وقالا :

— « صحة وطالع سعيد ! » .

فقال « كنيش » و « شتشفيك » معاً :

— « صحة وطالع سعيد ! » .

ثمّ مدّ كل منهما يديه يعين ركّاب الزورق على مغادرته ، فبادر « كنيش » يسأل الرجلين :

— « أكل شىء على ما يرام ؟ » . فقال « فورشيلو » :

— « أجل . لقد أعددنا ما طلبت » .

والتفت « كروك » إلى « ماروسيا » وأخرج من صدره صُرّة صغيرة وقال يخاطبها :

— « هذه هدية من أمّك يا " ماروسيا " » .

فتناولت الطفلة الصغيرة تلك الصرّة ولثمتها فى خشوع وقالت :

— « بارك الله كل ما يأتينى من والدتى . . . أكل أهلى فى سلامة وعافية ؟ » .

— « كلهم ، صغارهم وكبارهم » .

ثم استأذنت فى فتح الصرّة ففتحتها ، فإذا فيها بعض الحلوى والثمار المجففة ، فأخذت تديرها على الرجال الأربعة وكلٌّ لها شاكر مبتسم .

وبعد لحظة قصيرة وجّه « شتشقيك » سؤاله إلى « فورشيلو » و « كروك » قائلاً :

— « ماذا لديكما من أنباء ، بعد الأنباء التى كنت قد زوّدتكم بها ؟ » .

فقال « فورشيلو » :

— « إن الجنوب كله متحفّز للوثوب ، فإذا كلل الله مسعاك بالنجاح ، واستطعت أن تثير فى زعيم "جادياش" النخوة والوطنية ، نهضت "أكرانيا" على بكرة[1] أبيها نهضة واحدة ، وأنقذت الوطن من براثن العدو » . وقال « كروك » :

— « إننا ننتظر منك الإشارة ليهجم الرجال والنساء والأطفال هجمتهم الكاسحة » . فقال « شتشقيك » :

— « حقق الله الآمال ، ومكّننى من أن أنتشل زعيم "جادياش" من مخالب التتر ، ولسوف تصل إليكم منى إن شاء الله الإشارة المرجوة » .

وقال « كنيش » :

---

(١) البكرة : الجماعة . يقال جاءوا على بكرة أبيهم أى لم يتخلف منهم أحد .

إن الله مع المظلوم وهيهات أن ينسانا الله » .

ثم ساروا جميعًا يتقدّمهم « فورشيلو » و « كروك » إلى مكان قريب من الشاطئ ، تداريه بعض الأشجار ، وكان هناك جواد مُطهَّم[1] أسْوَد مربوط الرَّسَن[2] إلى جِذْع شجرة فقال « كنيش » :

— « اركب يا " شتشقيك " هذا الجواد، وأردِف " ماروسيا " وراءك ، وانتهب به الأرض انتهابًا طول الليل ، واتركه عند الصباح ، فهو يعرف طريقه إلى مزرعة أخينا « ساموس » .

فامتطى « شتشقيك » صَهْوَة الجواد ، وأرْدَف " ماروسيا " وراءه ، فتشبّثتْ به ، وطوقته بذراعَيْها الصغيرتين ، فطار الجواد بهما لا يكاد يُسْمَع وَقْعُ حَوافِره ، كما لو كان جَوادًا مجنَّحًا . . .

وبقى الرجال الثلاثة لحظات ، يحدّقون فى ذلك الجواد الطائر ، حتى استحال على البُعْد شَبَحًا انغمس رُوَيْدًا رُوَيْدًا فى قِطَع الضَّباب .

(١) جواد مطهم : تام الحسن .   (٢) الرسن : حبل الدابة .

٧

كانت مدينة « جادياش » مَقَرًّا للزعيم المشمول برعاية سلطان التَّتَر وحمايته ، فاستيقظت المدينة ذاتَ صباح على عيدٍ من الأعياد ، وأخذت أصوات النواقيس فيها تجلجل فى الفضاء وتدعو الناس إلى الصَّلاة ، فازدحمت دُروب المدينة بالغادِين والرَّائحين ، يوشحهم ضَباب الصَّباح بوشاحه الشَّفَّاف .

وكان المَطر قد هَطَل [1] طول الليل ، فبلّل الأرض ونثر الأنداء على الزَّهْر وأوراق والشجر ، وكثيراً ما تمْطِر السماء فى الرَّبيع والصَّيف فى تلك البلاد .

(١) هطل المطر : نزل متتابعاً متفرقاً عظيم القطر .

ولقد غصّت بعض السّاحات بالوافدين ، وقفوا يتجاذبون أطراف الحديث فى مختلف الموضوعات ، انتظاراً لموعد الصلاة ، فكان بينهم المغنّى العجوز الجوّال الذى يعرفه القرّاء ، تَصْحَبه كالعادة رفيقته الصغيرة ، وكان الاثنان قد وصلا إلى المدينة فى فجر ذلك اليوم .

وقف المغنّى العجوز على دَرَجة من الدَّرجات المؤدّية إلى باب المعبد الكبير فى تلك المدينة ، والتفّ حوله رَهْط من الناس ، أخذ يتبادل وإياهم أحاديث التُّقَى والصَّلاح ، ويصف لهم السبيل القويم الذى يبلُغ به الإنسان جنات الله وفِرْدَوْس النعيم .

وأنْهَى حديثه بتنهُّدة عميقة ، شاطره إياها معظم السَّامعين ، ثم استغرق فى تأمّلٍ عميقٍ شأنَ الرجل التَّقىّ الوَرِع [٢] ، تجذبه السماء إليها فلا يَحْفِل بما يجرى حواء على الأرض .

واتّفق أن وصل فى تلك اللحظة ، فارسان يتمايَسان على جوادَيْهما ، فقطعا عليه وعلى المحيطين به حَبْل الصمت ، فاشْرَأبَّ [٣] القوم إليهما ، وسرّحت العيون نظراتِها فى شاربَيْهما الطويلَيْن ، ومَنْكِبَيْهما العريضين ، وبِزّتهما [٣] العسكرية الأنيقة ، فبادرا الجمع بالتحيّة ، وعرف الناس أنهما من حرس الزعيم فتعالت مجموعة من الأصوات تسألهما قائلة :

---

(١) الورع : التقى الصالح .

(٢) اشرأب للشىء وإلى الشىء : مد عنقه لينظره .

(٣) البزة : الثياب والسلاح والهيئة .

— « أيحضر الزعيم ؟ أيحضر ؟ » . فقال الفارسان :

— « نعم سيحضر » . فتطلّع المغنى العجوز إليهما وقال :

— « وافرحتاه ! سوف تتمكّن إذن عيناى الحقيرتان من أن تكتحلا برؤية زعيمنا المحبوب ! ».

وانبرت سيدة فتية مشرقة الصبا ، مستديرة الوجه كالكرة ، فسألتهما :

— « وهل تحضر أيضًا زوجة الزعيم ؟ » . فقال الفارسان :

— « نعم ستحضر » .

— « وهل تحضر كذلك نسيبته ؟ » . فقال المغنى العجوز :

— « ومن تكون هذه النسيبة ؟ » .

فقالت له أصوات مختلفة :

— « إنها الآنسة " ميفودفنا " شقيقة زوجته » .

فقال المغنّى العجوز :

— « لم نسمع بها قطّ فى ديارنا ، فهل يثق بها الزعيم ؟ » فقيل له :

— « كلّ الوثوق ، فحسبُها أن تشير بإصبعها إشارة خفيفة ، فتجرى الأمور وفق مشتهاها » . فقال المغنّى العجوز :

— « يا لها من نُعْمَى كبيرة تتمتّع بها ! » .

فقاطعه شيخ من الحضور مغيظًا مُحْنَقًا وقال :

— « نُعْمَى ؟! نُعْمَى ؟! إن هذه الكلمة لا تنطبق عليها ، فاعلم أن

" ميفودفنا " لا تكترث للنعم مهما كانت ، ولقد تكفيك نظرةٌ عابرة إليها لتقدُرَها حقَّ قدرها ، فهى آنسة مستقيمة السِّيرة والسَّريرة ، لم تطأطئ رأسها لأىّ مخلوق كان » . فقال المغنّى العجوز :

— « هى إذن متعجرفة متكبّرة يُخْشَى جانبها ! »

وزاد على كلامه هذا فقال كأنه يُصْدِر حُكْمًا من الأحكام :

— « ما المتكبِّر إلاّ حَبَاب[1] لا ينتفخ حتى يذوب ! » .

فصاحت فيه سيّدة طاعنة فى السنّ ، جليلة المظهر ، وقالت وهى ساخطة :

— « ماذا تقول أيّها الشيخ ؟ إنك لتغمز بكلامك فَخْر مدينتنا وبلادنا . . . إن " ميفودفنا " شُعْلة خيِّرة ، وكوكب منير يبدّد منّا الحنادس[2] والظُّلمات . » فقال المغنّى العجوز مُمْعِنًا فى عناده :

— « لئن كانت على مثل ذلك الضياء ، لتمشِيَنّ إذن مُثَقَّلَةً بالجواهر واللآلئ ، مرتدية بسبائك الذّهب » . فصاح أحد الحاضرين :

— « ما أبْعَدَكَ من الحقيقة والصّواب أيها العازف الشيخ ! فإنها لا تلبس إلاّ رخيص الملابس ، ولا تتحلّى أبدًا بالجواهر فهى غانيةٌ عنها ، ولولا النور الملألىء من عينيها السوداوين ، لحسبْتَها سيّدة من

---

(١) الحباب : الفقاقيع التى تعلو الماء أو الخمر .

(٢) الحنادس : جمع حندس ، الليل الشديد الظلمة والحنادس أيضاً تطلق على ثلاث ليال مظلمة من آخر كل شهر .

عامّة الناس » . وصاح أحد غيره :

— « إنها لا تزهى بجليل مقامها ، ولا يختلف زيها[1] عن زيّ سواد[2] النساء ، وإن لها ، فضلاً عن وطنيتها ، جوانب كريمة نعرفها فيها ونقدرها حقّ قدرها وإن هى أخفتها ، فكم اصطنعت المعروف ، وأغاثت الملهوف ، وأقالت العثرات[3] ، دون أن تدرى يمينها بما تصنع شمالها » . فقال المغنّى العجوز :

— « عذراً يا قوم ، فقد أسأت إلى أميرتكم ، فاغفروا لى ما أتيت به من نُكْر[4] ، وفُهْت به من تجديف[5] ، وكيفما كان الأمر فقد أتحتُ لكم الفرصة للثناء عليها وتمجيدها . . . » .

ومرّ فى تلك الأثناء على مقْربة من القوم ، بعض السادة الوجهاء ، فالتفت المغنّى العجوز إلى أحد الفتيان وقال :

— « قل لى بربّك يا فتى ، من هؤلاء السادة المتأنّقون ؟ » .

فقال له الفتى :

— « إنهم حاشية أمير من أمراء التتر ، حلّ ضيفًا على الزعيم ، ولقد كان فى المدينة رَهْط من هؤلاء الأمراء ، غير أن "ميفودفنا" ما برحت تُلِحّ على الزعيم وعلى شقيقتها زوجته ، فى رحيلهم وإنهاء

---

(١) الزى : هيئة الملابس . (٢) سواد الناس : عامتهم .
(٣) أقال الله عثرة فلان : أنهضه من سقوطه .
(٤) النكر : الأمر الشديد القبيح . (٥) التجديف : الكفر والإهانة .

زيارتهم ، حتى رحلوا ولم يبق منهم غير أمير واحد ، وهؤلاء السادة حاشيته » . فقال المغنى العجوز :

— « ولماذا ألححت فى رحيلهم ، وأىّ ضرر رأته فى بقائهم ؟ » .

فقال الفتى :

— « اسألها إذا شئت ، ولعلها رأت أنه لا يليق بالزعيم ، استقبال هؤلاء الأمراء والحفاوة بهم ، فى حين تحتلّ جيوش التّتر نصف "أكرانيا" . » فقال فتى آخر :

— « لا جدال فى أن القصر قد قلّت فيه الولائم والأحفال منذ رحيلهم ، ويقال إن الأمير الباقى سيرحل عما قريب » .

فضغطت « ماروسيا » على يد صديقها الكبير فَرِحة مبتهجة ، فضغط هو أيضًا على يدها فتألّق وجهها وأشرق .

وانقطع القوم فجأة عن الحديث ، وساد فيهم الصمت ، حينما لمحوا عمدة المدينة مُقْبلاً نحوهم ، فتأهّبوا جميعًا لتحيّته ، فقد كانوا يَرَوْن فيه الأب الحنون والحاكم العادل .

وعندما وصل إلى حَلْقة القوم ، أخذ المغنّى العجوز بيد « ماروسيا » واقترب من العُمْدة وقال له :

— « تقبل تحيّاتنا يا سيّدى العُمْدة ، فقد أقْبَلْنا من مكان بعيد لنراك ونقدّم إليك فروض الإجلال » .

فشمل العمدة كلاًّ من المغنّى العجوز والطفلة الصغيرة بنظرة عَطْف

وحَنان ، وتابع المغنّى العجوز كلامه وقال :

ـ « لقد عرفت يا سيدى العمدة ، أن النار المضطَّرمة اللَّهَب لا بُدَّ أن تَخْمَد فى قلب الصحراء، وأن الحطب الرَّطْب لا بُدّ أن يشتعل إذا وقع على الجمر ، فهربت من الصحراء بحْثًا عن الرجال » .

فاضطَّرب العمدة عند سماعه هذا الكلام، ونظر إلى هذا المغنّى نظرة طويلة ، ثم حنى رأسه تأمينًا على كلام الشيخ وقال :

ـ « لئن أتيت إلينا من مكان بعيد ، لقد لمست ولا شك كثيراً من الآلام، وتعرَّضْت حتْمًا للأهوال والأخطار ، فالطُّرق غير مأمونة ...».

فقال المغنّى العجوز :

ـ « العُرْيان يا سيّدى العمدة لا يخشى أن يُسْرَق قميصه، والإنسان الذى لا يملك غير حياته لا يُغْرِى اللصوص ، ومن لا يرهب الموت يرحل إلى كل مكان » .

فاضطَّرب العمدة ثانية، ثم تغلّب على جزَعه وقال فى بُطء وهدوء :

ـ « هل نمت السنابل وقام القمح على سيقانه ؟ » فقال المغنى العجوز :

ـ « لقد حُصِد قمحنا فى بعض البِقاع ، وقام بحصد أغلبه غير صاحبه ، أمّا البِقاع الأخرى فلا يزال القمح فيها غير ناضج كلَّ النُّضْج ، ولكن يستحسن أن يُحْصَد ، فمن يعرف عواصف الغد ،

ولا أكتمك يا سيّدى أن الناضج منه جميل قوىّ ! » .

فقال العمدة فى جلال وسكون :

— « استجاب الله لدعوتك أيّها المغنّى الكريم ! شكراً لك على الأنباء التى زودّتنى بها ! » . وتعالت الأصوات عندئذ من كل حدَبٍ وصَوْب[1] هاتفة :

— « الزعيم ! الزعيم ! »

فاستدار العمدة ليكون فى استقبال الزعيم فقال أحد الواقفين :

— « يبدو أن الزعيم اليوم غير منشرح الصدر ! » . فقال آخر :

— « بل قل إنه عابس ضَجِر ! » .

وقالت سيدة حسناء بصوت يشبه الهَمْس :

— « رأيته أوّل أمس فحسبته قطعةً من غمامة سوداء » .

وغطّى على صوت الحسناء صوت تردّد من كل جانب يقول :

— « نسيبته ، نسيبة الزعيم ! . . . » .

فسأل المغنّى العجوز أحد جيرانه وقال له :

— « أهى الآنسة " ميفودفنا " ؟ » .

فهزّ الجار رأسه هزّة الإيجاب ، فتطلّع المغنى العجوز إلى الآنسة المقبلة فرآها صورة صادقة لما عَرَف عنها وَسمِع .

وبينما هى ترتقى دَرجات السلّم إلى المعبد ، وصلت إلى حيث كانت

---

(١) من كل حدب وصوب : من كل ناحية .

« ماروسيا » فاستجمعت الطفلة الصغيرة شجاعتها ، وأمسكت بكُمِّ السيدة واستوقفتها وقالت :

— « سيّدتى ! لقد سقط منك هذا المِنْديل » .

وقدّمت إليها مِنديلاً أحمر .

فوقفت الآنسة ، ونظرت إلى المنديل الأحمر ثم إلى الطفلة التى قدّمته لها فقالت :

— « شكراً لك يا ابنتى الجميلة ! منديل حبيبٌ إلىّ عزيزٌ علىّ فقدانه ! » .

ولا نخالُ أحداً غير « ماروسيا » شَهِد سقوط ذلك المنديل من صاحبته ، فنظرت الآنسة إلى « ماروسيا » نظرة طويلة كريمة ، شفّعتها[1] بنظرة أخرى إلى المغنّى العجوز ، ثم قالت للطفلة الصغيرة :

— « أرى أنك لستِ من هذه الدِّيار ، فما رأيتك فيها قطُّ ، فهل أنت قادمة من مكان بعيد يا حبيبتى ؟ » . فقالت « ماروسيا » :

— « من مكان بعيد جدًّا يا سيّدتى » . فقالت الآنسة :

— « عرفتُ إذن لماذا تلوح عليك وَعْثَاءُ[2] السَّفَر ، فمن أية بقعة من "أكرانيا" أنت قادمة ؟ » . فابتدر المغنّى العجوز يقول :

— « قد يصعب على هذه الطفلة الصغيرة يا سيدتى ، أن تذكر لك

---

(١) شفع الشيء : صيره شفعاً أى زوجاً بأن يضيف إليه مثله .

(٢) الوعثاء : المشقة .

أسماء الأمكنة التى مرّت بها . لقد عرّجنا فى طريقنا على أناسٍ كثيرين، فرأينا منهم الصّالح والطّالح[1] ، ومررنا ببقاعٍ شتّى ، فرأينا منها العامر والغامر[2] ، وشاهدنا حقولاً برُمّتها[3] قد دمّرتها المعارك ، وأخرى تموج بالسّنابل العالية يتمثّل فيها أمل " أكرانيا " ، ولكننا والحمد لله عرفنا الطريق » . فقالت الحسناء اللطيفة :

— « تعالَيا يا صديقيّ إلى القصر ، وامْشُلا بين يدى الزّعيم ، وأسمعاه موسيقا كما والغناء، أمّا أنا فسوف ترويان لى ما شهِدْتُما فى أثناه السفر » .

ثم داعبت بأناملها خدّ « ماروسيا » متلطفة ، وغاصت فى غِمار الناس .

* * *

رجع الزعيم بعد الصلاة إلى قصره ، وكان الجوّ صَحْواً جميلاً ، والشمس مشرقة متألّقة، والسماء قطعة من لازوَرْد[4]، فحلا[5] للزّعيم أن يتمتّع بجمال الصباح والضُّحَى ، فخرج وبعض حاشيته إلى الشُّرْفة القائمة بين ساحة القصر والحديقة .

---

(١) الطالح : خلاف الصالح . (٢) الغامر : الأرض الخراب .

(٣) برمّتها : بجملتها .

(٤) اللازورد : معدن مشهور يتولد بجبال أرمينيا وإيران وأجوده الصافى الشفاف الأزرق الضارب إلى حمرة وخضرة يتخذ للحلى وله منافع فى الطب .

(٥) حلا : يحلو . طاب .

ولاحت فى الأفق بعد قليل قطعةٌ من غَمام أسود آتية من ناحية الغرب ، فقال الزعيم فى قلَق ظاهر واضطِراب شديد :

— « ستعصف فوقنا اليوم عاصفة هَوجاء ! » .

وكان إلى جواره حين قال هذا ، آخر ضيف من أمراء التتّر ، فاستغرب من قلق الزعيم واضطِرابه فقال له الزعيم :

— « يجب على كل مُؤمن أن يقلق ويضطرب ، عندما يُدَوِّى صوت الله فى صوت الرَّعْد » . فقال أمير التتّر :

— « سيخرجنا الله من هذه العاصفة المقبلة ، ومن غيرها من العواصف مشمولين بالسلامة ، على أننى لا أرى مع ذلك أن هذه الغَمائم السُّود تُنْذِر بالسوء » . فقال الزّعيم :

— « بل تُنْذر بشَرٍّ جلَل ! »

وأمرَّ الزعيم يده على جبينه كمن يشعر بعذابٍ خَفِىّ ، فوجود هذا الضيف كان يضايقه ، وشعوره بأنه سجين نظراته الفاحصة ، كان يثير فيه كوامن الأشجان ، فكم هَتَفَ بنفسه يسألها : أتُرَى يستطيع هذا الضيف أن يقرأ صَفْحة قلبه ؟ أيستطيع أن يُدْرك ما يضطرب فى صدره من سَوْرات(١) الحنَق والغيْظ ، وما يَخِز(٢) ضميره من إبَر النَّدَم والأسف ؟ فما العمل ؟ وأين الطريق السَّوِىّ ؟ ولماذا نصّبه الله زعيمًا

(١) سورات : جمع سورة . سورة الخمر : حدتها . سورة البرد : شدته .
(٢) وخزه : طعنه طعنة غير نافذة بإبرة أو رمح ونحوهما .

على الشعب فى مثل تلك الظروف القاسية ؟ فكيف النجاة من مخالب التَّتر ؟ أيؤثر الأمن والعافية قبل أن يجنى ثمرة ضَعْفه واستسلامه ؟ وكان الضّيف يقرأ كل هذا على وجه الزّعيم العابس المقطّب ، كأنه يقرأ فى كتابٍ مفتوح .

وعلى حين غِرّة ، انبسطت أسارير[1] الزعيم انبساط أسارير الطفل الحانق الغاضب عندما يعثر على لُعْبة جديدة بين يديه ، لقد رأى فى الطريق المُفْضِى صُعُداً إلى شرفة القصر ، متسوّلاً يحمل قيثارة ، وتصحبه طفلة صغيرة ، فعلّل نفسه بسَماع الأنغام ، لعلها تطرد من قلبه السّأم والقلق ولو إلى حين .

فالتفت إلى الضيف الرقيب وقال وهو يشير إلى المتسوّل ورفيقته :

— « إن هؤلاء الناس ممتلئة جِعابهم[2] بالأناشيد والأغانى : وإنى لأوثرها على رفيع الموسيقى » .

ثم أمر حارسًا من الحرّاس أن يسمح للمغنّى ورفيقته الصغيرة بالمثول بين يديه .

فأقبل المغنى العجوز بعد قليل فحيّا وقبّل الأرض وقال :

— « أيتعطّف مولاى فأسمعه بعض الأغانى » ؟

فأجابه الزعيم إلى ما طلب ، وتناهَى فى اللطف والرّضا ، فعيّن

---

(١) أسارير : جمع أسرار . جمع سر : الخط فى الكف أو الجبهة . والأسارير أيضاً محاسن الوجه .

(٢) جعاب : جمع جعبة : كنانة النشاب .

له مكانًا من الشُّرْفة يجلس فيه وقال له :

— « اجلس هنالك فلن تضايقك الشمس » .

ولَحَظ أمير التَّتر ، وكان بطبعه دقيقَ الملاحظة ، أن مَنْكِب المغنِّى العجوز عريضة قويّة ، لا تتَّفق والشيخوخة البادية عليه . فوَدَّ لو تَفَرَّسَ فى قَسَمات وجهه ولَمَسَ خُصَل شعره ، ولكن الزعيم كان قد فاض السرور على قلبه ، فسمح للمغنِّى بأن يحتفظ بقُبَّعته فلا يخلعها عن رأسه .

بدأ المغنِّى العجوز يعزف بعض المقطوعات ، ثم اندفع يُغَنِّى ، فأكْبَرَ الزعيم عَزْفَه وحلاوة صوته ، وكان ممن يعرفون الألحان وأداء الأصوات ، فاستيقظ الفنّ فى فؤاده ، وامتلأ طرَبًا وحبورًا .

كانت الأنشودة التى أنشدها المغنِّى العجوز ، شِبْهَ صلاة ترقى معها النفس إلى خالقها ، فتردّد صَداها فى الفضاء . وبَلَغَ سمع زوجة الزعيم وشقيقتها « ميفودفنا » فهرولتا إلى الشُّرفة ، ووقفتا فى زاوية منها على مقربة من المغنى .

نظرت « ميفودفنا » إلى الطفلة الصغيرة ، فعرفت أنها الطفلة التى تناولت منها المنديل الأحمر ، وذكرت أنّها حشَّتْها على المجىء إلى القصر والمثول بين يدى الزعيم ، فأشارت إلى « ماروسيا » أن تدنو منها .

وكانت « ميفودفنا » مستندة إلى صندوق عال غرست فيه شُجَيْرة نادرة مفتّحة الأزهار ، فسارعت « ماروسيا » إليها فحجبها ارتفاع

الصندوق عن أعين الزعيم وضيفه الأمير .

فلما دنت الطفلة الصغيرة من السيّدة الحسناء، أخرجت من كمّها خِنْجراً دسّته بحركة رشيقة فى جيب نسيبة الزعيم .

فهل أحسّت النسيبة بالخنجر يُلْقَى فى جيبها ؟ إن وجهها الصامت لم يختلج بأية اختلاجة ، أما عيناها الواسعتان فكانتا عالقتين بالفضاء، مأخوذةً صاحبتهما بسِحْر الموسيقى وفتنة الغناء ..

ورجعت « ماروسيا » إلى مكانها بجوار صديقها الكبير ، دون أن يشعر أحد بذهابها ولا إيابها ، وكان المغنّى لا يزال مندفعًا فى الغناء يُنشد هذه المقطوعة :

خُلِقَ الْفِرْدَوْسُ دَارَ الـ ـصَّالِحِينَ الْعَادِلِينْ
وَلِمَنْ عَاشُوا عَلَى الأَرْ ـضِ ضَحَايَا الْجَائِرِين
يَتَلاَقَوْنَ بِهِ فِي كَنَفِ الرُّوحِ الأَمِينْ
فَإِذَا جَاءَ ظَلُومٌ وَرَنَا لِلسَّاكِنِينْ
صَدَّهُ عَنْهُمْ بِسَيْفٍ قُدَّ مِنْ جَمْرِ الْيَقِينْ
صَائِحًا فِيهِ غَضُوبًا غَضْبَةَ الْحَقِّ الْمُبِينْ
أَيُّهَا الظَّالِمُ إِنَّ الـ ـنَّارَ مَثْوَى الظَّالِمِينْ

وبَرِم أمير التَّتَر بذلك الغناء ، وتظاهر بالتثاؤب . فقال الزعيم :

— « هذه أشياء يجب ألاّ ننساها ! » .

فصاح الأمير فى المغنى قائلاً :

وكان العازف قد اقترب من الأمير فقال له :

— « أمْعِن النظر جيداً يا مولاى فى هذه القيثارة ما دمتَ خبيراً بآلات الطرب . . . إنها لا تليق بيدى لياقتَها بالأيدى البيض النّاعمة لهاتين السيّدتين ، ولكنها ستَبْقَى فى يدى ولا تفارقها » .

فتوهّم الأمير أن العازف قد عَمَدَ إلى الحيلة والإغراء ، ليحمله على شراء القيثارة فى الحال بمبلغ طائل ، ويقدّمها هدية إلى « ميفودفنا » الجميلة فقال فى سرّه : « خسئتَ أيها الثعلب الماكر » ، ثم قال له بصوت عالٍ :

— « هذه القيثارة إذن ثروتك وكنزك ! » . فقال العازف الشيخ :

— « القيثارة ، وهذا الذى تراه ، هما ما تقول يا سيّدى » .

وأخرج العازف الشيخ من طيات صِداره ، خنْجراً يشبه كلّ الشَّبَه ذلك الخِنْجر الذى كان قد أخرجه من صدره فى حضرة الزعيم الأول ، وأودع مقبضه تلك الرسالة الثمينة ، ويشبه أيضًا كلّ الشَّبَه ، ذلك الخِنْجر الذى دسه منذ لحظات قصيرة « ماروسيا » فى جيب « ميفودفنا » فلو أنه هو لكان معنى ذلك أنه لم يلبث طويلاً فى جيب نسيبة الزعيم .

وكان أمير التَّتر مُغْرَمًا بالأسلحة الجميلة ، فلمّا رأى الخِنْجر قال :

— « إنه ورَبِّى لمَتاع ثمين ! » .

فمدّ يده إلى العازف الشيخ ، وعيناه تُفْصِحان عن طمعه بذلك الخِنْجر الثمين ، وقال له :

ـ « أوَدُّ أن أفحص هذه الحلية الثمينة عن كَثَب » .

وشاء الشيخ الماكر ، أن يُذْكِي[1] طمع الأمير ويُثير شوقه ، فأخذ يتلاعب بالخنْجر ، يجرّده من غِمْده تارة ، ويلوح به فى الفضاء أخرى ، ثم يعيده إلى قِرابه[2] ، ويتأمّله ظَهْراً لِبَطْن دون أن يضعه فى يد الأمير ، وبقى على مثل هذه الحال حتّى قال :

ـ « إن هذا الخنجر صديقى الحميم . . . إنه حارسى الأمين ، فحين نكون معًا لا نرهب الإنْس ولا الجِنّ ، وهو مع ذلك أثَرٌ عزيز علىّ فقد ورِثْتُه عن أبى » . فقال الأمير :

ـ « دعنى ألمسه فلن أبتلعه ! » . فقال العازف الشيخ :

ـ « لئن ابتلعته ليكوننّ وخيمَ العاقبة حتى على صدر قوىٍّ فتىٍّ كصدرك يا مولاى » .

ونزل الشيخ فى نهاية الأمر عند رغبة الأمير فسلّمه إياه .

وكان الزعيم منشرَح الصدر بتلك المُحاوَرة الدّائرة بين الرجلين ، فإذا به ينتفض فجأة انتفاضةَ العُصْفور بلّلَّه القَطْر ، فقد تساقطت على ظهر كفّه قَطَرات ماء من تلك التى يُنْبِئُ سقوطها بانسكاب المطر الغزير ، فبدأ الرّعْدُ يُلَعْلِعُ[3] لَعْلَعَةً بعيدة خفيفة ، ثم مشت العاصفة إلى جوّ تلك البُقْعة بخُطُوات جبّارة ، فغامت[4] السّماء

---

(١) أذكى النار : أوقدها .
(٢) القراب : الغمد .
(٣) يلعلع الرعد : صوت .
(٤) غامت السماء : كانت ذات غيم .

فى لحظة قصيرة ، وارْبَدَّت [1] الدنيا، فصاح الزعيم فى ضيفه الأمير :

ـ « أعِد هذا الخِنْجر إلى صاحبه ، وأسرعوا جميعًا فى دخول القصر » .

أمَّا الأمير فكان يوالى إعجابه بذلك الخِنْجر ، ويلوِّح به فى الفضاء مجرَّداً من غِمْده ، ملألئًا تحت لمعَان البَرْق ، ثم التفت إلى العازف الشيخ وقال بلهجة الآمر :

ـ « لا بُدّ لى من الحصول على هذا الخِنْجر فكم تريد ثمنًا له ؟ » .

فلمّا رأى الشيخ ساكتًا لا يجيب قال له :

ـ « سأبتاعه منك ، فالمال يعوِّض عن كل شىء » .

فقال الشيخ الأكرانى بصوت رزين خطير :

ـ « أيعوّض المال عن كل شىء ، حتّى عن الشرف ؟ حتى عن الحرّية ؟ » . فقال الأمير :

ـ « أجل حتى عن هذا الذى تسميه أنت بالشرف ، وتسمّونه جميعًا بالحرّية ! » .

وفى اللحظة التى كان الأمير فيها يُجدِّفُ بمثل هذا الكلام، دَوَّى الرَّعْد دويًّا عظيمًا شَقَّ صدر السماء ، فانسكب منها المطر كمن أفواه القِرَب ،وهبّتْ العواصف ، وهاجت الرياح فهَرْوَل الزعيم هارباً إلى جَنَاحه تتبعه زوجته ذاهلةً مرتجفة ، وهمّت « ميفودفنا » بأن تتبعها ،

---

(١) أربد : كان أربد اللون والأربد ما كان فيه ربدة وهى الغبرة .

فاستوقفها صوت « « شتشڤيك » مُدَوِّيًا كالرَّعْد وهو يقول :

— « " ميفودفنا " ! »

فالتفتت إلى مصدر الصوت ، فرأت « شتشڤيك » ممدود الذراع إليها ، وسمعَتْه يتابع صيحته ويقول :

— « انظرى ، انظرى ، فى ثانية واحدة صَرَعَتْ عدالةُ الله هذا الذى كان يتبجَّح [1] منذ هنيهة متكبرًا مستعليًا ، ويحيط " أكرانيا " بنظرة الهوان والاحتقار ! » .

وكان أمير التتر قد صرعته الصاعقة وطرحته إلى الأرض جثة هامدة ، فانحنى عليه « شتشڤيك » وانتزع خنجره من يده المقفَّعة [2] .

وأدركوا جميعًا أن رعونة الأمير وطيشه هما اللذان قضيا عليه ، فقد استجلب الصاعقة إليه حين كان يقلب صفحة الخنجر وسط البروق .

فحمل العازف الشيخ بذراعيه القويتين ذلك الذى أرداه غرامه بخنجره ، ونقله إلى جناح الزعيم تتبعه « ميفودفنا » و « ماروسيا » .

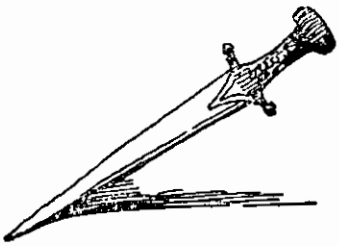

(١) تبجح : افتخر وتعظم وباهى .

(٢) تقفع الشىء : تزوت أطرافه وتقبضت .

٨

حينما هَرَب زعيم « جادياش » من العاصفة ، ولحقت به زوجته مضطَّربةً جازِعة ، اعتصمت هى بمَخْدَعها تحتمى فيه من غضَب السماء ، ومضى هو إلى حُجْرة مكتبه يراقب من إحدى نوافذه سير العاصفة مستسلمًا إلى التفكير .

ولم ينتشله من تفكيره إلاّ الجَلَبة التى طرقت مَسْمَعه ، فالتفت إلى مصدرها ، فرأى المغنّى العجوز يحمل أمير التَّتر بين يَدَيْه وَلا يَنُوء بحمله ، ورآه يدخل الحجرة تتبعه نسيبته « ميفودفنا » والطفلة التى كانت تَصْحَبه ، ثم رآه يضع جثة الأمير على بعض المقاعد المستطيلة ، ويَعْمِد إلى سِتْرٍ من الأستار وينتزعه ويغطّيه به .

فَهِم الزعيم أن أمير التتر قد أصبح جسداً بلا روح ، وسمع صوت المغنِّى العجوز يُدَوِّى فى نَبْرةٍ قويّة ويقول :

ـ « لقد ضَرَبَ الله ضَربتَه فلا مَجالَ لكلام العبد . . . » .

فصاح به الزعيم غضوبًا مُحْنَقًا :

ـ « مَنْ تكون أيّها الجَسُور ، حتى تدخل علىّ وتتحدّث فى حضرتى بلهجة الترفُّع والاستعلاء ؟ » .

فقال « شتشفيك » فى نَبْرة حلوة لطيفة :

ـ « هوِّنْ عليك يا سيّدى الزعيم ، فما أنا بعدوٍّ لك ، وإنما أنا أحد أبناء " أكرانيا " المخلصين ، ولئن كنت قد تزيّيْتُ بهذه الأسْمال ، إن هَذ فى كان آن أصل إليك ، وأحدّثك بمَنْجاةٍ عن أعين الرُّقباء والأعداء ، فادْعُ غير مأمور من يَنْقل هذه الجثّة الهامدة إلى غرفة صاحبها فى القصر ، استعداداً لدَفْنها محفوفةً بمَجالى التعظيم والإجلال المفروضة عليك شئتَ أم أبَيْتَ ، ثم استمع لى فإنى محدّثك بأمرٍ عظيم » .

ولم يزدد الزعيم إلاّ دهشةً واستغرابًا من جرأة هذا الرجل الغريب ، ومن حديثه الجامع المانع ، غير أنه أحَسّ فى قَرارة نفسه ، بِمَيْلٍ إلى هذا الغريب المتطفّل ، نَسِيَ معه كبرياءه وغَطْرَسته ، وشعر كذلك أنه مندفع إلى تلبية مطلبه فى غير اعتراضٍ ولا مُقاوَمة ، فاستدعى مَنْ نَقَل الجُثَّة من حُجْرته ، ثم رأى « ميفودفنا » تستأذن فى الانصراف وتخرج مُمْسِكةً بيد الطفلة « ماروسيا » .

وما هو أن يثق الزعيم بابتعاد نسيبته والطفلة ، حتى يجلس فى أحد المقاعد ، ويلتفت إلى زائره الغريب ، ويقول له بلهجة الآمر الناهى ، ولكن فى شىء من الدعة وحب الاستطلاع :

— « خلا لك الجو أيها المتنكر فاجلس إزائى ، وقل لى من أنت وأفض إلى بما تريد » .

وقبل أن يجيب « شتشقيك » عن سؤال الزعيم ، مشى إلى باب الحجرة ففتحه وأجال طرفه فى مختلف الأروقة ، ليطمئن إلى خلوها من الرقباء والمتصنتين ، فسره ألا يرى على مقربة من الباب ، إلا حاجبا واحداً هو القوزاق « دوروشينكو » ، وكانت « ميفودفنا » قد أوعزت إليه ، وهى ذاهبة إلى مخدعها ، بأن يحرس باب الزعيم ، ويمنع عنه الجواسيس والرقباء ، وكان « شتشقيك » يعرفه حق المعرفة ، فتبادل وإياه النظرات ، ثم أحكم إغلاق الباب ، واستدار إلى الزعيم وجلس قبالته وقال :

— « أنا رسول جزيرة " ستش " إليك يا مولاى ! بعثونى أستثير فيك وطنيتك وغيرتك على البلاد . . . » .

فقاطعه الزعيم وقد انفجر مرجل غضبه :

— « يا للجرأة والوقاحة ! أيجسر أهل " ستش " أن يوجهوا إلى الخطاب ؟ أبلغت بهم الوقاحة أن يبعثوا إلى رسولا عنهم ، يشنف أذنى بقوارص من الكلم ، طالما لسعونى بها فى طول البلاد وعرضها ،

وسكت عنها كَرَمًا ونُبْلاً . . . » . فقال « شتشقيك » رزينًا هادئًا :

— « إن أهل " ستش " هم مِنْ أوْفَى الناس للوطن ، وإنهم ليبذلون دماءهم رخيصةً فى سبيله ، وينتظرون الزعيم الذى يقودهم إلى النصر ، ومعاذَ الله أن يرتابوا فى صدق وطنيّتك ، فإن تذمّروا وسمعتَ منهم ما لا يرضيك ، فلأنهم لا يوافقون على خُطّتك فى إنقاذ البلاد » .

فقال الزعيم وقد سكنت حِدّة غضبه :

— « إن الذى يكون فى سَفْح الجبل ، لا يكشف من الآفاق ما ينكشف لمن يكون فوق القِمّة ، ولقد أرى فى إنقاذ الوطن مالا تَرَوْن ، فإن أنا جَنحْتُ إلى المسالمة والمفاوضة فلكى أنال بهما ما لا يُسْتطاع نيله بقوّة السلاح ، مع إكبارى لشجاعة أبناء وطنى وفى طليعتهم أهل " سيتش " » .

أخِذ « شتشقيك » بصراحة الزعيم ، فقال متأدّبًا متلطّفًا :

— « إن خُطّتك يا مولاى لن تُفْلِح مع عدو لا ذِمام له ولا وَفاء ، أفلا تذكر فى تاريخنا الطويل معه كم نَكَثَ العهد ، وخان المَواثيق ؟ أوَ لا تذكر كيف مات سَلَفُك غَمًّا ويأسًا بعد إذ صدّق وعوده واستسلم لأكاذيبه ؟ » . فقال الزعيم متألّمًا :

— « أذكر ذلك ولا أنساه! » . فاستأنف « شتشقيك » حديثه قائلاً :

— « ألا تذكر يا مولاى كم حَرْبًا أصلانا بنارها فى الغابر من الأعوام ؟ أوَ لا تذكر كيف كان يسالمنا كلّما آنس منا القوّة والغَلَبة ، وكيف

كان زعماؤنا يظنّون عندئذ أن العدو قد رَحَل عنّا إلى غير رَجْعَة ، وأنه كفّ عن مناصبتنا العداء ، ورجع عن الطمع فى الاستيلاء على بلادنا وديارنا ؟ » . فقال الزعيم مؤمّنًا على كلام محدّثه :

— « أذكر ذلك ولا أنساه ! » .

فمضى « شتشقيك » يذكّر الزعيم بغَدَرات العدو وقال :

— « ألا تذكر يا مولاى أن العدو كان دائمًا أبدًا مُخادعًا فى كل ما قال واقترح ، خَتّالاً فى كل ما أظهر وأبْدَى ، وأنه كلّما قذَفْنا به إلى ما وراء الحدود قَضَى وقته فى تأهّب متواصل يتكافأ وما اختبره فى الأكرانىّ الشّجاع من بأسٍ وشِدّة شَكِيمة ، حتى إذا جمع الفيالق والسّلاح ، وآنس من نفسه القُدْرة على سحق هذه الأمّة الصغيرة الباسلة ، نَفَخَ فى الصُّور وزحفت جيوشه اللُّهام تجتاح بلادنا ، وتشيع فى أرجائها الدّمار والخَراب ؟ ولقد أعاد الزمن سيرَتَه من الدَّوَران ، وعادت إلى " أكرانيا " تلك الأيام السُّود ، ونَفَرَ أبناؤُها مرّةً أخرى إلى الجهاد علانيةً وسِرًّا ، يواجهون العدو فى وَضَح النهار تارة ، وينقضّون عليه تَحْتَ جُنْحِ اللَّيْل تارات . . . وأنت يا مولاى مُمْعِنٌ فى حسن ظنّك به ، مُغالٍ فى اللّين والمسالمة ، راجٍ بهما أن تنتزع حقّ الوطن من أفواه الذّئاب . . . » .

فقال الزعيم وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

— « أجْمِلْ بحَمِيّتك وحماستك أيّها الفتى الباسل ! ولكن هل

لى أن أذكر لك الويلات التى جرَّتْها الحرب على القسْم الغربىّ من البلاد ؟ زُرْ تلك الأنحاء فى طريقك إلى مدينة " شيجيرين " فترى المدن والقرى مُدَمَّرة ، والسهول والحقول مُحْرَقة ، وآثار الخراب ماثلة فى كل ناحية ، فماذا أفادت المقاومة ؟ وهل تجدى نَفْعًا إذا كانت القُوَى غير متكافئة وكانت البلاد منقسمةً على نفسها ؟ . . .

يقولون إن زعيم " شيجيرين " يفاوض البولونيّين ويستنصرهم على التَّتَر ، فمن ينصره إذا أنْشَب البولونيُّون مَخالبهم فى البلاد ؟ فهل من الحكمة أن نستبدل قَيْداً بقَيْد ، واستعماراً باستعمار ؟ أفكنتَ تريدنى أن أقاوم فيعمّ الدّمار فى أنحاء البلاد بأسرها وتقع كالثَّمَرة النّاضجة فى يد عدوٍّ جديد ؟ ثم ما لنا ولهذا الجدال ، أفما زعمتَ أنك جئت إلى هذه المدينة متنكّراً لتراني وتحدّثنى بأمرٍ عظيم ؟ لقد ذكرت لى أنك رسول " ستش " إلىّ فأى أمرٍ عَهِدُوا فيه إليك ؟ » .

وأيقن « شتشقيك » أن الفرصة سانحة ، وأن الزعيم حينما نَدَّدَ بانقسام البلاد على نفسها قد مهّد له سبيل النجاح فى رسالته ، فقال على الفور :

— « سمعتُك تأسف يا مولاى منذ هنيهة ، على أن بلادنا منقسمة على نفسها ، وإنى لأرى رأيك فى هذا ، فانقسامنا يذهب بقوتنا ويبثّ فينا الضَّعْف والخَوَر ، ورجال " ستش " غير راضين عن خُطّتك ولا عن خُطّة زعيم " شيجيرين " وإن كانوا يُكْبِرون فيك وفيه آيات الولاء

— «أتعرف أغنية قاطع الطريق ؟ أنْشِدنا إيّاها أيها المغنّى العجوز !» .
فقال المغنّى العجوز :
— « يَعِزّ علىّ يا مولاى أنى لا أعرف هذه الأغنية » .
فقال الأمير :
— « وددتُ لو عرفتَها وغنيتَها فتتسلّى بها هاتان السيّدتان الفُضْليان ، فإن النساء يُعْجَبْن بالأبطال النابهين[1] ولو لُصوصًا » .
فَحَدَجت[2] « ميفودفنا » أمير التتر ببصرها ، ونظرت إليه على البعد نظرةً متعالية ، فخفض بصره واحمر وجهه خجلاً ثوانِيَ معدودات ، ثم شاء أن يغيِّر مجرى الحديث فقال للمغنِّى :
— « أتدرى أن قيثارتك ، ليست من الصِّنْف الشَّائع ، فاجتهد إذن أن تتعلم أغنية قاطع الطريق ، إنها نشيد جميل . . . ثم إنّ فى يديك قيثارة جميلة جدًّا ، فهاتِها لأمتع بها الطَّرْف عن كَثَب[3] »
فقدّم « المغنى » العجوز قيثارته إلى الأمير وقال :
— « هاكها يا مولاى ، قلّبْها بين يديك وافحصها فَحْصَ خبير ، تجدها كَنْزاً من ثمين الكنوز » .
فتناولها الأمير وأنطقتها أنامله بعض الأصوات ، ثم جلس على درجة من درجات الشُّرْفة بحيثُ كان يعلو قليلاً على العازف الشيخ وقال :

(١) النابهين : المشهورين .
(٢) حدج ببصره : حدق .
(٣) عن كثب : عن قرب .

— « إنها لعمرى قيثارة جميلة ! » .

وأخذ يقلّبها بين يديه ، ويطيل النظر إلى كل جانبٍ من جوانبها فاحصًا متأمّلاً [1] ، ولكنه كان فى حقيقة الأمر يُدير نظراته فى صاحب القيثارة ، ويحاول أن يستشف ما قدّره فيه من سرٍّ دَفين ، فلم يضطرّب العازف الشيخ ، على بؤسه الظاهر وحقارة شأنه ، من تلك النظرات ، بل أخذ يشرح للأمير فى دَعةٍ وتواضُع ، محاسن تلك القيثارة وأسرارها .

فقال له الأمير :

— « أتدرى أنك لو بعتَ هذه الآلة الثمينة لدَرَّتْ [2] عليك مبلغًا كبيراً من المال يريحك من عناء العزف والجَوَلان ؟ » .

فقال العازف الشيخ :

— « العازف الذى يَهيم بفنّه ، لا ينفصل عن قيثارته كما لا ينفصل الفارس عن فرسه ، فالفقر يا سيّدى لا يحولُ دون الغرام بجميل الأشياء ، فقد عُرِض عَلىَّ غير مرّة بَيْع هذه القيثارة بمبلغٍ كبيرٍ من المال ، كنت أستطيع به أن أستبدل بهذه الأطمار [3] التى أرتديها ثيابًا فاخرة كثيابك يا مولاى ، ولكن أبَيْتُ كلّ الإباء » . فقال الأمير :

— « إنك لتغالى فى قيمة قيثارتك طمعًا فى بيعها بالغالى من الأثمان» .

---

(١) تأمل الأمر وفيه : نظر فيه ملياً .

(٢) در الحليب : كثر . درت الدنيا على أهلها : كثر خيرها .

(٣) الأطمار : جمع طمر بكسر الطاء . الثوب البالى .

والإخلاص للوطن ، وهم يتوسّلون إليكما أن توّحدا القيادة ، وأن ينزل أحدكما للآخر عنها ، فتمشى البلاد قاطبة وراء قائدها ، فإما أن نموت وإمّا أن نحيا أعزّةً أحراراً . . . تلك هى رسالة أهل " ستش " إليكما يا مولاى » . فقال زعيم « جادياش » :

— « لقد بدأتنى بالزيارة أولاً ، لأنك تعلم مبلغ عناد زعيم "شيجيرين" وشدّة إصراره على التشبُّث بأهداب الحُكْم والقيادة ، فكأنّك جئت تقول لى : انزل عن القيادة لذلك الزعيم الشيخ فهو أجدر منك بها » .

فقال « شتشقيك» فى نَبْرة قويّة حاسمة :

— « معاذَ الله أن نفضّل أحدكما على الآخر إلاّ فيما ينفع الوطن ، ويعيد إليه حرّيته واستقلاله وكلاكما ذلك الوطنى الحرّ الأبىّ الضَّيْم » .

فقاطعه زعيم « جادياش » قائلاً :

— « إن خُطَّتى فى خلاص البلاد هى ما علمتم ، فلو عدلتُ عنها إلى الكفاح والقتال ، فلا بد أن تسير البلاد كلها ورائى صَفًّا واحداً » .

فقال « شتشقيك » مغتبطًا :

— « سوف تسير لا محالة » .

فعاد زعيم « جادياش » إلى المقاطعة وقال :

— « ولكن اذهب أولاً إلى زعيم " شيجيرين " واسأله هل يقبل أن يضع يده فى يدى ، وهل يرضى أن ينزل لى عن القيادة وأن يُمْسِك عن مفاوضة البولونيِّين ولْيَقْضِ الله بعد ذلك ما هو قاض ، فإمّا النصر

وإما القبر كما ذكرت ، ولكن لن يقول أبناؤنا وأحفادنا : كان أباؤنا وأجدادنا جُبَناء » .

فكاد « شتشقيك » يطير من الفرح فقال مبتهجاً :

ـ « لقد ذهبتُ إليه أولاً يا سيّدى . . . » .

فقاطعه زعيم « جادياش » مرّة أخرى وقال :

ـ « لا شك أنه أصَرَّ على موقفه وتمسّك بالرياسة ، فهو لا يرى فىّ إلاّ الفتى الغرير المتعجرف المترامى فى أحضان المستعمِر ، والمتقلب فى أعطاف النعيم . . . » .

فأخرج « شتشقيك » من جيبه خِنْجَره ، ونزع المقْبض ، واستخرج من جوفه رسالة زعيم « شيجيرين » وقدّمها لزعيم « جادياش » وهو يقول :

ـ إنه ينزل لك يا سيدى عن الرياسة راضيًا مختارًا ، وها هو ذا ميثاقه » .

تناول زعيم « جادياش » الرسالة وأخذ يقرؤها و « شتشقيك » يُحَمْلِق فيه ويقرأ على قَسَمات وجهه أثر الرسالة فى نفسه ، فلمح الدّمع يكاد يطفر من مآقيه ، ثم رآه يَطْوِى الرسالة ويعيدها إليه وهو يقول :

ـ « إن الزعيم الشيخ ، يُلقّنى بهذه الرسالة درسًا فى النّبالة والوطنية ، وأمثولة فى التضحية ومكارم الأخلاق ، وإنى لأرجو أن أتأثّره فى التضحية

وكَرَم النفس ، فما كان للشّباب أن يفتئتوا على حقوق الشيوخ ، ولا سيما إذا كانوا مثل زعيمنا وطنيّةً وجِهاداً ، ومآثر وجلال أعمال . فلئن كنا افترقنا بالأمس فى الوسيلة ، لقد اتحدنا اليوم فى الوسيلة والغاية » .

وكاد « شتشقيك » هو أيضًا تخنقه العَبْرَة الحبيسة بعد سماعه هذا الكلام ، ثم خفق فؤاده خفقانًا شديداً عندما قال له الزعيم :

— « عُدْ إلى زعيمنا الشيخ الهُمام ، وأعِدْ إليه رسالته ، مشفوعةً برسالةٍ منى سأكتبها فى الحال ، أنزل له فيها عن القيادة ، وأضع نفسى رهن إشارته ، وليساعدنا الله على إنقاذ الوطن » .

ونهض من مقعده ، وسار إلى مكتبه ، وجلس يخطّ رسالته النبيلة إلى الزعيم الشيخ زعيم « شيجيرين » ، ونهض « شتشقيك » هو أيضًا من مقعده ، وبقى واقفاً ينتظر ذلك الميثاق الخطير ، فلمّا فرغ الزعيم من الكتابة قدّم الطِّرْس إلى القوزاق الزائر وقال له :

— « كنتَ رسول "ستش" إلىّ ، فكن رسولى إليهم ، وأطْلِعْهم على ما سمعت وشهدت ، لعلّهم يرجِعون عن رأيهم الخاطئ فىّ ، ولعلّهم يعرفون أنّى ما عَقَقْت الوطن ، ولا تردَّيْتُ لحظةً من اللحظات فى حَمْأة الخيانة » . وسكت ثوانىَ معدودات ثم قال :

— « كن كذلك رسولى إلى زعيم "شيجيرين" بل إلى زعيم "أكرانيا" وقل له :

— « لا حِزْب إلاّ حزب "أكرانيا" ولا زعيمَ إلاّ هو » .

قرأ « شتشقيك » الرسالة ، ثم طواها وأودعها والرسالة الأولى مقبضَ خنجره ، وأخذ يُجيل الفكر فى الزعيمين ، ويُحكّمه فى موقفهما ليعرف أيّهما أسمى عاطفةً وأكبرُ تضحيةً ، فما رجحت فى حكمه ، كفّة واحدٍ منهما على كفّة الآخر ، فى ميزان النُّبْل والوطنية . فقال :

— « إن تضحيتك يا مولاى ، وتضحية زعيم "شيجيرين" من قبلُ لَمأثُرَةٌ تُزْهَى بها الأرض والسماء ، فكلاكما الابن البارّ لبلد لا يُنْبِت إلاّ الأبناء البَرَرَة ، ولسوف يَقْبَل الله قربانكما ، ويجزيكما عنه سَنِيَّ الجزاء ، وما من جزاء أوْفَى ولا أسْنَى من أن يجعلكما سيف الحقّ المسلول ، يضرب به الطُّغاةَ الظالمين » .

فلم يُحِر الزعيم جوابًا ، واستسلم إلى التأمل والتفكير ، حتى انتشله من غيبوبته صوت « شتشقيك » يقول له :

— « أتأذن يا مولاى فى استدعاء الطفلة "ماروسيا" فقد آن لنا أن نودّعك شاكرين » .

فوافق الزعيم وخَفّ « شتشقيك » خارجًا من الحجرة ، فلقى القوزاق « دوروشنكو » واقفًا كالصَّنَم على مَقْرُبة من الباب ، فحيّاه مبتهجًا ، وأنْهَى إليه بما أراد وهو يغمزه غَمَزات الرّضا والارتياح .

وما هى إلاّ دقائق قليلة حتى كانت « ماروسيا » و « ميفودفنا » فى حضرة الزعيم ، وأمارات الغبطة والمسرّة تلوح منهما فى العينين وقَسَمات الوجه ، فقد كان الحاجب « دوروشنكو » قد نقل إليهما ما لمحه على وجه

«شتشقيك» من دلائل البَهْجة، فطربوا جميعاً للبُشْرَى، دون أن يعرفوا مَداها . فقالت « ميفودفنا » أوّلَ ما دخلت وهى تبتسم :

— « لعلّ زعيمنا المُفَدَّى قد استأنس بحديث الزائر المتفنّن ، فشغله عما ينفجر فى فضاء الله من برق ورعد وصواعق . » فقال الزعيم :

— « لقد شغلت حَقّاً بحديثه ، عما يلمع ويلعلع تحت السماء » .

ثم رمى بنظره من وراء النافذة إلى الجوّ العاصف الغائم وقال :

— « أرى أن الزوبعة لم تهدأ . . . » . فقالت « ميفودفنا » :

— « كلا يا مولاى بل لعلها ازدادت عَصْفاً وَدوِيّاً . . . » .

فقال « شتشقيك » يخاطب « ميفودفنا » :

— « دعينا يا سيّدتى من حديث الصّواعق تقذف بها السماء ، ونتدارى منها بالدور والأكواخ ، ولنأخذ بحديث الصّواعق التى ستزلزل الأرض تحت أقدام العدو ، ولن يكون له منها عاصم ، يوم يزأر أبناء "أكرانيا" زَأْرَتَهم الكبرى ويهجمون من الجهات الأربع هَجْمَة الأسود الغِضاب على عدو أرْعَن يَعِيث عَيْثَ الذّئاب فى أرضنا وحِمانا » .

أدركت « ميفودفنا » أن « شتشقيك » قد فاز فى مهمّته ، وحمل الزعيم على الكفاح السافر فقالت مبتهجة :

— « جعل الله ساعة تلك الزَّأْرة قريبةً دانية . . . » .

فقال « شتشقيك » وهو يشير إلى الزعيم :

— « إنها لقريبة بإذن الله ، فحيِّ يا آنسة زعيمنا النبيل الذى سيقودنا إلى النصر مُتَّحِداً مع زعيمنا الشيخ أمير "شيجيرين" » .

واكتفت « ميفودفنا » بهذه العبارة لتعلم ما انطوى تحتها من حديث طويل دار بين الرجلين ، وانتهى إلى هذه الخاتمة السعيدة ، فقالت فى نفسها « لله درّك يا "شتشڤيك" ! » .

وأقبلت على الزعيم تَشُدّ على يده وتقول له :

— « الأمّة كلها من ورائك أيّها الأسَد الهصور . . . » .

فقال الزعيم :

— « على الأمة أن تكون كلها وراء زعيمنا الشيخ أمير "شيجيرين" فهو الكفيل بأن يحقق لها قَصِيَّ الآمال » .

وقطَع « شتشڤيك » هذا الحوار بأنْ وجَّهَ الخطاب إلى « ماروسيا » وكانت واقفة تصعّد النظرات فى صديقها الكبير ، كأنَّ عَدْوَى الاغتباط قد سَرَتْ منه إليها فقال لها :

— «وأنتِ يا "ماروسيا" هيا الثمى يدَ الزعيم ، إنه مُنْقِذ "أكرانيا"» .

فأكبَّت « ماروسيا » على يدَ الزعيم تلثمها وهى تقول له :

— « كلّنا نحبّك يا مولاى لأنك تحبّ "أكرانيا" » .

* * *

شُيِّعت جنازة أمير التتر فى اليوم التالى ، بأعظم ما تُشَيَّع به جنازة أميرٍ منتصر ، وحُفَّت بمنوّع ضروب الحفاوة والإجلال ، وكان الناس

فى ذلك اليوم وبعده يتخذون من مصرع الأمير موضوعاً يَنْسِجون من حوله المَزاعم والآراء .

وظهر فى الجموع المغنّى العجوز تتبعه الطفلة الشَّقْراء ، فكان إذا انتظمته جماعةٌ من التَّتَر استمطر الرَّحمات على الأمير الراحل ، وتبسّط معهم فى رأيهم ، وتمنَّى لو أوتِىَ الأمير قليلاً من الحذَر والتبصُّر إذن لنَجا من تلك المِيتة التى لا تَليق بابْنِ الطِّعان والنِّزال .

وكان إذا اختلط بزُمَر الأكرانيّين ، وسمع رأيهم فى عدالة الله وقِصاصه ، زادهم تمسُّكاً برأيهم وأوْغَرَ صدورَهم على العدوّ الغَدَّار .

وظلَّ مغنِّينا العجوز يرتاد حَلَقات القوم ، ويفيض فى هذا وذاك حتى أصْبَح التَّتَر والأكرانيّون على السواء يرتاحون إلى لقائه ، ويسرّون بآرائه ، ويطرَبُون لموسيقاه وأغانيه ، ويعطفون على الطفلة الشقراء التى لا تفارقه فى آناء الليل وأطراف النهار .

وعلى حين فجأة انقطع المغنّى العجوز عن ذَرْع الأزقّة ، وغِشْيان المَحافل والأندية ، وتفقَّده الناس طويلاً ، وتقصَّوْا أخباره ، فعَلِموا من القوزاق « دوروشنكو » أن المغنّىَ العجوز قد ذهب إلى بلاد التَّتَر ، يُطْرِب كبراءهم وأمراءهم ، وأن الطفلة الشّقراء قد رقّت لحالها الآنسة « ميفودفنا » فألحقتها بخدمتها وعنيت بتَربيتها .

وانتشر الخبر فى أنحاء المدينة ، وأيّده ظهور الطفلة فى رِكاب الآنسة « ميفودفنا » حيثما سارت وأنَّى نزلت من المدينة والرّيف ، تزور

معها أُسرَ العـُمـّال والفلاّحين، وتسمعهم يبثُّونها المطالب والشّكاوى.

وجليـّة الأمر أن « شتشقيك » لم يرحل إلى بلاد التّتـَر، وإنـّما ذهب يلقى زعيم « شيجيرين » ويقدّم له رسالة زعيم « جادياش » ويتّفق معه على خـُطـّة العمل وينقلها إلى رفقائه فى جزيرة « ستش » ثم إلى كل خـَليـّة من خلايا المقاومة فى البلاد .

ولم يشأ الفارس البطل أن يصحب الطفلة « ماروسيا » فى هذه الرحلة الشاقـّة الخطرة فاستودعها الآنسة « ميفودفنا » ووعدها بأن يعود قريباً فيوصلها إلى منزل والديها، وأراد ألاّ يثير الظـّنون فى نفوس التـّتَر وألاّ يتعقّبوه فأوعز إلى القوزاق « دوروشنكو » أن يُشيع فى المدينة أنه رَحـَل إلى بلاد التّـتـَر ، وأن الآنسة « ميفودفنا » الكريمة الخـَيـِّرة قد شملت الطفلة برعايتها ، وضمـّتها إلى سـُكـّان القصر .

خلع « شتشقيك » أسمال المغنـِّى العجوز ، وارْتـَدَى زِيَّ فرسان القوزاق ، وسـَلـَكَ إلى مدينة « شيجيرين » بعد إذ أصبح يعرف مواقع جند الغدو فى تلك البقاع ، طريقـًا قصيراً غير الطريق الأوّل الطّويل، وإن حفـّته المخاطر والمهالك ، وكان لا يسير إلاّ ليلاً ، ويستريح فى النهار عند أحد مواطنيه ، فاتـّجه أولاً إلى الشمال ثم انعطف منه يساراً إلى نهر « دنيبر » وكاد يجتازه سباحة ، لولا أن لاحت له فى بعض شـُطـْآنه عـدّة قوارب متجاورة ، فقال فى نفسه : إمـَّا أنْ تكون هذه القوارب لبعض الصّيادين من المواطنين ، وإما أن تكون لجند العدو،

يستخدمها فى التنقُّل من ضَفَّة إلى ضَفَّة فى هذه الناحية البعيدة من الجُسُور ، فمَشَى إلى واحد منها فى رِفْق وحَذَر ، وركبه واجتاز به النهر ، ثم تابع سيره شمالاً فغَرْباً حتى هَبَط مدينة « شيجيرين » .

ذهب « شتشقيك » تَوًّا إلى زيارة الزعيم ، وقدّم له رسالة زعيم « جادياش » فقرأها دامعَ العينين خفّاق الفؤاد ، ثم سجد لله شكراً على أن حَبَا البلاد بوَحْدَة الكلمة ووحدة الجهاد ، ونهض وقال يخاطب « شتشقيك » :

— « أبْلِغ زعيم "جادياش" أنى لم أستقلّ عنه طَمَعًا فى حُكْم ، ولا رغبةً فى سُلْطان ، وإنما هو رأى اختلفنا عليه فى تحرير البلاد ، فالآن وقد اتّفقنا على السَّيْر معًا إلى هدفنا السّامى ، فإنى قادرٌ له تضحيتَه عارفٌ أنه كان أنْبَلَ منّى نَفْسًا ، وأطْيَبَ عُنْصُراً ، وأصْدَقَ وطنيّة ، فقد نزل عن القيادة راضيًا ، فى حين كنت نزلتُ عنها مُكْرَهاً . . . » .

فقاطعه « شتشقيك » وقال :

— « من ينكر ماضيك المَجيد فى خدمة البلاد يا مولاى ؟ » .

فاستأنف الزعيم كلامه قائلاً :

— « شكراً لك يا بُنَىَّ وعسى الله يمكّننى من خدمة بلادى حتى الرَّمَق الأخير ، ولكن أرجو أن تبلغ زميلى أنى سأجمع القيادة فى يدى ، فإن متُّ مُسْتَشْهداً فِدَى وطنى فى هذه الحرب التى سنخوض غِمارَها ، آلت إليه الرياسة من بعدى ، وإن كُتِبتْ لى السلامة ،

فإنى مُبايعُهُ منذُ الآن رئيسا أوحد على البلاد » .

ثم أخذ الزعيم الشيخ يرسم خطّة الهجوم فى كل جهةٍ من جهات البلاد ، ويستأنس برأى « شتشقيك » فيها ، وضَرَب للهجوم العام يومًا محدوداً جعله بعد ثلاثة أسابيع من ذلك اللقاء ، فقد راعى فى حسابه أن جيش العدو المتفرّق فى شرق « أكرانيا » ، مطمئنٌّ إلى استسلام ذلك القسم من البلاد معتمدٌ على خضوع الزعيم فيه ، فسوف يُؤْخذ على غِرّة ، أمّا الجيش الذى يحتلّ غرب « أكرانيا » ويلاقى من أهلها الهَجمات والغارات ، فإنه يعيش فى حَذَرٍ ويَقظةٍ وتأهُّبٍ دائم ، فسوف يكون التغلُّب عليه أصْعَبَ وأشَقّ ، ولكنه مع ذلك لا يفكّر فى استئناف الهجوم قريبًا ، بعد الذى لَقِيه من بسالة الأهلين ، وبعد الخسارة الفادحة التى مُنِىَ بها ، فقد عرف الزعيم الشيخ من أخبار العدو أنه يُضَمِّد جراحه ، ويلمّ أشتاته ، وينتظر المَدَد ، فلن يزحف على « شيجيرين » إلاّ بعد شهر أو شهرين ، ولسوف يُؤخذ هو أيضًا على غِرّة يوم ينقضُّ عليه أبناء « أكرانيا » انقضاضَ الصَّواعق من كل حَدَبٍ وصَوْبٍ .

وغادر « شتشقيك » مدينة « شيجيرين » منحدراً إلى الجَنوب مزوّداً بأوامر الزعيم الشيخ ووصاياه ، ومضى ينقلها إلى مواطنيه فى كل مدينة وقرية مَرّ بها ، ويخبرهم بيوم الهجوم وساعته ، ويطلب إليهم إبلاغ إخوانهم بذلك الموعد .

وعرّج فى طريقه على مزرعة « كنيش » فما وجده فيها ، ولكنّه لقيه بعد ذلك فى منزل « دانيلو شابان » وكان المنزل مكتظًّا على عادته بالضّيوف وفى طليعتهم « كنيش » و « كروك » و « فورشيلو » فقصّ عليهم حوادث الأيام الّتى عاشها منذ فارقهم فى صحبة « ماروسيا » ؛ وكان « كنيش » قد رَوَى لهم منها الجانب الذى عرَفَه ، فاغتبطوا أيّما اغتباط باتّفاق الزعيمين ، ودبّت الحماسة فى قلوب الرجال والنساء ؛ ووَدُّوا لو نَفَرُوا فى الحال إلى ميادين القتال .

ولَمَح « شتشقيك » بين العيون الشّاخصة إليه ، عينين يبلّلهما الحنان والحنين ، تنظران إليه بل تحدّثانه بأفصح ما يتحدث به اللسان ؛ لقد كانتا عينى أمّ « ماروسيا » تسألانه وهى صامتة لا تتكلم ، فوجّه إليها الخطاب وقال :

— « ثقى يا سيدتى أن "ماروسيا" فى خير وعافية ، وأنها الآن تَنْعَم برعاية الآنسة "ميفودفنا" زعيمة نساء "أكرانيا" نبلاً ووطنيّة ، ولقد كانت طفلتك يا سيّدتى عونًا ثمينًا لى فى حِلّتى وتَرْحالى ، فوالحقّ إن أخى "دانيلو" لم يكن مغاليًا عندما قال لى عنها يومَ رأيتها فى هذا المنزل أوّلَ مرّة ، إن عقلها أكبر من سنّها ، فكثيراً ما أنسانى حديثها الجميل الرزين أنها بِنْت سنوات عشر ، فاطمئنى بالاً يا سيدتى ، ولا يساورك القلق عليها ، وليحفظ الله لك ولأكرانيا جميعًا هذه الجوهرة . . . » .

فأطْلَقت أمّ « ماروسيا » لعَبَراتها العنان ، ثم أخذت تمسح عن وجنتَيْها الدُّموع معتذرةً باسمة . . .

وارفضّ السَّامر ، وعاد كلٌّ إلى منزله ، وسار « شتشقيك » فى طريقه إلى جزيرة « ستش » فوصل إليها غير مُتْعَب ولا مجهود ، كأن نجاحه فى مهمّته واقتراب يوم الخلاص ، قد جمعا فيه قوة كتيبة من الشّباب الأشدّاء .

أقْبَلَ عليه إخوانه يهنّئونه بعودته سالمًا مُعَافَى ، و يبادلونه القُبُلات ، ويُزْهَوْن بالنّجاح الذى أحرزه ، وقضت جزيرة « ستش » كلها ليلةً ساهرة صاخبة ، رَقَصَ فيها الفُرْسان وغَنَّوْا ، وأكلوا وشَربوا ، وملأوا الجوّ هُتافًا هزّ أركان الفضاء .

وفى الصباح انطلق كلٌّ إلى سلاحه ينظّفه ويصقله ، وإلى جواده يُعِدّه للمعركة الفاصلة ، وبقى « شتشقيك » بينهم أيامًا يدبّر معهم الخُطَط ، ويبادلهم الرأى ، حتى فارقهم رَضِىَّ النفس مرتاح البال ، وعبر النهر إلى شرق أكرانيا ، ومضى منه عائداً إلى « جادياش » .

وكان فى أثناء سفره يُسِرّ بالنبأ العظيم وبموْعِد الهجوم إلى مَنْ يَلْقَى من مواطنيه ، ويكُلّفهم نقله إلى إخوانهم ، وكم فرح وابتهج عند ما عَلِمَ من هؤلاء المواطنين ، أنّ زعيم « جادياش » كان قد بعث بكوكبةٍ من رجاله الأوفياء ، يطوفون سرًّا بتلك الأنحاء ، ويخبرونهم باتّفاق الزعيمين على الوثوبِ وثْبَةً واحدة فى وجه العدو ، ويُنْهُون

إليهم بالتأهب للقتال فى موعدٍ قريب سيعرفونه . . .

حلّ الموعد المضروب ، فنهضت « أكرانيا » نَهْضَةَ الرجل الواحد ، وشدّ أبناؤها على العدو ، هابطين إليه من قِمَمِ الجبال ، منقضّين عليه من السُّهول والغابات ، فأذهلته المباغتة وهبّ ينظم صُفُوفه مترنّحًا تحت تَوالى الضَّربات .

وكثرت ساحات القتال ، وأبلى الفلّاحون الأكرانيون البَلاء الحَسَن فى استرجاع أرضهم الطيبة ، وقام فرسان القوزاق وعلى رأسهم « شتشڤيك » بأعمال باهرة تُثير العجب والدهش ، وخاض زعيم « جادياش » المعارك على رأس جنده متنقّلاً بهم من نَصْرٍ إلى نصر مرفوعَ السيف خفّاقَ اللواء .

وكثيراً ما رأى الناس إلى جانبه فى ساحات الهيجاء ، فارسةً جميلة جَمال الصباح ، كان وجودها بين المحاربين ، يُذْكِى نيران الحماسة فى الصّدور ، ويُلْهِب الهِمَم والعزائم ، وكان يسير وراءها دائمًا تابعٌ صغير شُجاع ، مُمْتَطٍ صَهْوَةَ جوادٍ أسود ، يحمل لها الرّاية ، ويهزّها بيده النحيلة فى مُشْتَبَكِ السيوف ومُصْطَرَع الأسِنّة .

إن ذلك الجندىّ الصغير كان « ماروسيا » أمّا الحسناء المتبوعة فكانت «ميفودفنا » نفسها .

ولم يقتصر اشتراك النساء فى القتال على « ميفودفنا » و « ماروسيا » بل تعدّاهما إلى جميع نساء الوطن ، فكنّ للرجال نِعْمَ النصير ، وكنّ لهم رفيقاتِ سلاح وآسياتِ جراح . . .

ولم يكد يمضي شهر واحد على بدء القتال ، حتى استردّ الأكرانيون كل القسم الشرقي من بلادهم ، فخفقت رايتهم فيه من الجنوب إلى الشمال . أما القسم الغربي ، فكانت المعارك لا تزال دائرة الرَّحَى فيه ، وكان النصر ينتقل كل يوم بين الصُّفوف ، فهو حينًا حليفُ الأكرانيّين ، وهو أحيانًا حليفُ التَّتَر ، ورفيق جيشهم الكبير ، في تلك البِقاع .

ولقد تمخّضت المعارك في ذلك المَيْدان عن مصرع زعيم « شيجيرين » وسقوطه شهيداً في ساحة المَجْد والشرف ، فآل زِمام البلاد كلّها إلى زعيم « جادياش » فتقلّده وقلبه ينفطر حزنًا على مَقْتَل الأمير العظيم .

وتشاور زعيم « أكرانيا » الجديد و « شتشقيك » في حال البلاد ، فرأيا وجوبَ المسارعة إلى نَجْدَة الإخوان في الغرب ، وإلاّ ضاعت على البلاد ثَمَرة الكفاح ، فقرّ قرارهما أن يَزْحَف الزعيم بجيشٍ من الجند والأهلين إلى الجنوب ، فيعبر النهر ، ويمضي منه صُعُداً إلى « شيجيرين » مكتسحًا أمامه فُلُول العدو ، حتى يصل إلى مَيْسَرة جيش التَّتَر فيعمل فيها الضَّرْب والطَّعْن ، وأن يزحف « شتشقيك » على رأس الفرسان القوزاق إلى الشمال ، ويعبر النهر ، وينحدر منقضًّا على مَيْمَنة العدو ، وأن يَخْرُجَ أهل « شيجيرين » في الوقت نفسه ، ويهجموا على قلب جيش العدو ، فيُطْبِق أهل « أكرانيا » على التَّتَر من ثلاث جهات ، ويضيِّقوا عليهم الخناق حتى يستسلموا ، فإن فكّروا في الفرار وحاولوا أن يَرْجِعُوا القَهْقَرَى إلى النهر ، تصدّى لهم الأهلون المنتشرون على

طول الضفة الأخرى وتلقينهم بالنار والحديد . . .
خطة محكمة ولا شك ، ولكن يعوز تنفيذها أمرٌ واحد ، هو أن يعلم أهل « شيجيرين » بها ، وأن يعرفوا أن المدد فى طريقه إليهم ، فتكفل « شتشقيك » بأن يقوم بهذه المهمة .

* * *

كان الطريق السريع إلى مدينة « شيجيرين » هو ذلك الذى يتجه فيه السائر شمالاً بغرب ، حتى يصل إلى النهر ، بعد أن يخترق سلسلة من الغابات والحقول .

وكان على مكان ضيق من النهر ، جسر يصل بين الضفتين ، فإذا ما عبره السائر أو الراكب ، استطاع أن يمضى منه إلى مدينة « شيجيرين » فى طرق ودروب تكتنفها السهول والتلال .

ولقد حاول « شتشقيك » غير مرة أن يصل إلى ذلك الجسر ، وينفذ منه إلى لقاء بعض الأكرانيين هناك ، فينهى إليهم برسالة الزعيم وخطته ، ولكن كان فى كل مرة يعود أدراجه مخفقاً فى مهمته ، فقد كان عسكر التتر منتشرين فى تلك البقعة ، يحرسون المدخل حراسة قوية ، ويطلقون النيران إثر كل حركة يشعرون بها ، ولو كانت صفير ريح أو حفيف شجر .

وقرر « شتشقيك » فى آخر الأمر ، أن يجابه الخطر ويحاول محاولته الأخيرة ، راضياً بأن يشترى بسفك دمه إبلاغ الرسالة قبل فوات الأوان .

فأوعز إلى كوكبة من إخوانه ، أن يسبقوه إلى الغابة وينتشروا فيها ، ويحدّثوه بالرموز التى تواضعوا عليها ، لعلّه يحتاج إلى معونتهم إذا لزم الأمر وضاقَتْ به الضّائقة .

وذهب يودّع « ميفودفنا » ويُفْضِى إليها بما عَزَم عليه ، ويوصيها خيراً بالطفلة « ماروسيا » ويرجو منها إذا قُدّر له ألاّ يعود من مهمّته ، أن توصلها إلى أهلها ، عندما يصفو الجو ويصبح الطريق إليهم مأمونًا .

ثم سألها أن تستَدْعى « ماروسيا » ليبثّها تحيّة الوَداع ، فهرولت الطفلة إليه فَرِحة مبتهجةً فقال لها :

— « جئت أودّعك يا « ماروسيا » فإنّى راحل فى مهمّة خطيرة ، قد تستغرق مدّةً طويلة ، ولقد كنت أوَدّ أن أعود بك إلى أهلك ، ولكن رحلتى لا تحتمل الإرْجاء ، ولسوف تقوم الآنسة "ميفودفنا" مَقامى ، فتبعثك إلى منزلك وأهلك فى القريب العاجل . . . وإنّى لشاكرٌ لك كريم صُحْبتك ، وثمين معونتك فى سبيل الوطن ، ذاكرٌ لهما ما حييت . . . » .

فتملّك « ماروسيا » حزنٌ شديد ، وقالت له وهى تُجْهِش بالبكاء :

— « أفى سبيل " أكرانيا " رحلتك هذه ؟ »

فقال لها وقد آلمه بكاؤها :

— « نعم يا " ماروسيا " » . فقالت له وهى تشرق بدمعها :

— « أما عُدْتَ تَرانى جديرةً بخدمة الوطن وخدمة رجاله ، فآثرتَ

القيام بمهمّتك وحدك »؟ فقال لها « شتشقيك » مندفعًا :

ـ « كلاّ يا " ماروسيا " وألف مرة كلاّ . ولكن رحلتى هذه قد تكون أشدّ رحلاتنا خطراً » . فقالت « ماروسيا » مُدلّةً برأيها :

ـ «وهل تتحرّر "أكرانيا" إذا تجنّب أبناؤها وبناتها الأخطار؟ ! » .

ثم استأنفت حديثها وقالت بعد أن كفّتْ عن البكاء :

ـ « عندما قمتَ برحلتك الكبرى قبل نُشُوب هذه المعارك ، قلتَ لى إنك سوف تُعَرِّج على جزيرة "ستش" ، وإن أهل هذه الجزيرة لا يرحّبون بالنساء . فهل أنت ذاهب إليها فى هذه المرّة أيضًا . ؟»

فضحك « شتشقيك » طويلاً وشاركته الآنسة « ميفودفنا » فى الضّحك ، وما زالت « ماروسيا » تُلِحّ على صديقها الكبير فى اصطحابها إلى غايته ، وتتوسّل إليه باكيةً تارة ، وراجيةً أخرى ، حتى رضِيَ وأذْعَن . . .

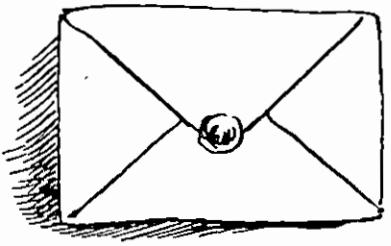

٩

من ذانك الشَّخْصان اللذان يجتازان المسالك والشِّعاب إلى هَدَف من الأهداف ؟ إنهما « شتشقيك » و « ماروسيا » ، فقد تركا المدينة مُتَّجهَيْن إلى الشمال ، ومَشَيا أطرافَ النهار كله .

وكان الطريق أو بالأحرى الدَّرْب المتعرِّج الذى يسلكانه ، تزدحم جَنَباته بالأزهار والعصافير وجيوش النَّحْل البرّى ، فكان الزهر يبثّ عطْره ، والعصافير تغرّد ، والنَّحْل يروح ويغدو فى طَنين [1] متواصل كأنَّ وطنَ هذا العالَم الصغير ، لم تَعْدُ عليه العَوادِى ، ولا اجْتاحَهُ العدوّ المُغير .

(١) الطنين : صوت الذباب ونحوه .

وكانت أشعّة الشمس تنساب من خلال الأغصان ، غير ذاكرةٍ أنها كانت فى الأمس القريب ، تغمر بأشعّتها الذهبيّة المذابح والمجازر.

ومَرّ الرفيقان، بحقلٍ تناثرت فى أرجائه أزهار البَنَفْسَج . فقال « شتشقيك » يخاطب « ماروسيا » :

— « انظرى يا "ماروسيا" ! ما أجْمَلَ هذا الحقل ! وما أكْثَرَ زَهَرات البنَفْسَج فيه ! يَحْسُن بنا أن نستريح هنا قليلاً » .

فصمتت ماروسيا ورآها صديقها قد انتقلت بعد الإشراق والمَرَح إلى الوُجُوم[1] والتفكير فقال لها :

— « فِيمَ تفكّرين يا بُنَيّتى ؟ » .

فتردّدت « ماروسيا » فى الجَواب ، ثم أسندت رأسها الجميل الأشقر إلى صدر صديقها وقالت :

— « ذكرتُ البنفسج فى حديقة منزلنا ، وذكرتُ الأكاليل التى كانت تضفرها أمّى منها وتزيّن بها رأسى ورأس أخَوىَّ الصغيرين » .

فقال لها صديقها « شتشقيك » :

— « كان ذلك فى العهد الجميل السَّعيد ، أيّام لم يكن على الأطفال أن يصبحوا أبطالاً صِغاراً ، فليغفر لى الله مرورى ببيتكم ، وإثارة نفسك إلى اصطحابى فى جِهادى ، وحرمانك رؤيةَ الأهل ، ودِفْء البيت ، وطَعْم الراحة » . فبكت « ماروسيا » ووضعت يدها على فمه وقالت :

(١) الوجوم : السكوت والعجز عن التكلم من شدة الغيظ أو الخوف .

— « صَهْ ، ولا تستبدِرَّ بكلماتك عَبَراتى ، ولا تجرّدنى من الشجاعة التى أوصانى بها والدى ، فما زلتُ فى حاجةٍ إلى تلك الشجاعة حتى نهاية رسالتى ، أجل حتى النهاية . . » .

ونهضت الطفلة الصغيرة على الأثر ، فنهض صديقها الكبير ، وأمْسَكَ بيدها واستأنفا المسير حتى وصلا إلى الغابة ، فأزاح « شتشقيك » من طريقهما الأغصان والأوراق ودخلاها ، ولكنها كانت غابةً كثيفة ، مزدحمةَ الشجر ، مملوءةً بالأعشاب ، لا يسلم الماشى فيها من غُصْنٍ يلطم وجهَه ، وشوكٍ يخدش جسَده ويمزّق ثيابه .

على أن الصديق الكبير كان يعلم الهدَف الذى يسعى إليه ، فأخذ يفحص كل عُلَّيْقَةٍ [1] يمُرّان بها ، ويُرْهف السمْع إلى كل حركة ، ويُطيل النظر إلى أرض الغابة ، كمن يبحث عن أثرٍ أو دليلٍ يَنْشُدُه [2] فى تلك الأجَمة .

وبَقِيا على هذه الحال ، حتى انتهيا إلى مكان من الغابة ، تباعد فيه الشجر قليلاً وامتدّت الأروقة فقال « شتشقيك » :

— « استريحى يا "ماروسيا" عند جِذْع هذه الدَّوْحة العظيمة ، إنها زعيمة الغابة تَوَّجتها النجوم والكواكب بأكاليل لألائها مدّة ألف عام أو تزيد ، وما زالت شامخةً سامِقة [3] ، لم تَحْنِ هامَتَها لإغراء الضياء والنور » .

---

(١) العليق : نبت يتعلق بالشجر وثمره كثمر التوت .

(٢) نشد الضالة : سأل عنها وطلبها .

(٣) سمق : علا وطال فهو سامق .

فاستمعت « ماروسيا » لكلامه مستوعِبةً واعِية ، وكان إلى جانب تلك الدَّوْحة الباسقة ، دوحةٌ أخرى عملت الفئوسُ فى قلبها وأغصانها ، فلم يَبْقَ منها إلاّ قطعة من جِذْعٍ جافّ ، لا روحَ فيه ولا حياة ، فتطلّعا إليه معًا مأخوذَيْن بذلك الجِوار بين النضارة والجَفاف ، وبين الحياة والموت ، فلَشدّ ما دهشت الطفلة وذهلت عندما رأت فوق ذلك الجِذْع ، إكليلاً من زهر البنفْسَج ، وازدادت دهشتها عندما رأت البنفسج فيه غَضًّا نَضيراً ، فخطا «شتشفيك» إلى الجِذْع ، وتناول من فوقه الإكليل ورمَى به إلى « ماروسيا » وقال :

— « اعلمى يا "ماروسيا" أن هذا الإكليل يخبرنا أنْ لسْنَا وحْدَنا فى الغابة ، ففيها بعض أصدقائنا » .

وانبعث على الأثَرِ من نهاية الغابة ، صفير خَفيف ، حَسِبَتْهُ « ماروسيا » صفير عُصْفور من العصافير ، فقال صديقها الكبير :

— « إنه ولا شكّ صوتُ فتىً لم تَشْتَدَّ فى حَلْقه الأوتار ، وإنىّ أوَدّ أن ألقّن هذا الفتى الغرير[1] درسًا فى الصَّفير » .

فوضع بعض أنامله على شَفَتَيْه ، ونفخ بينهما ، فدوّى فى أرجاء الغابة صفيرٌ قوىٌّ حادٌّ ، أجابه عنه صفير مماثل ، انبعث من ثلاث جِهات مختلفة ، فقال « شتشفيك » لرفيقته الصغيرة :

— « سأغيب عنك لحظةً قصيرة فلا تجزعى ، وابْقَىْ فى مكانك

---

(١) الغرير الشاب لا تجربة له .

ولا تُغادريه » .

فقالت « ماروسيا » :

— « سأبقى فى مكانى ولن أغادره » .

وسار الصديق الكبير قليلاً ، ثم خطرت بباله فكرةٌ من الفكر ، فعاد إلى رفيقته الباسلة وقال لها :

— « حاذرى على الأخص من الأفكار السُّود ، ولا تجعليها تستولى عليك ، وادفعيها عنك إلى مدى العمر » .

فقالت « مازوسيا » :

— « لن أستسلم إلى الكآبة أبداً ، فكن مطمئنَّ البال هادئَ البَلْبال[1] ، ولئن مِتُّ الساعةَ لأموتَنّ غريبةً عن الحزن والأسى ، ولماذا أحزن وقد تحرّرت " أكرانيا " ولم يبقَ إلاّ قطعة صغيرة منها سوف تتحرّر عن قريب » .

فتبادلا نظرةً أخيرة ، وتوارى الصديق الكبير وراء الأغصان والأوراق.

ومالت « ماروسيا » بأذُنَيْها تصغى إلىَ وقْع قدَمَيْه ، حتى ترافقه بسَمْعِها أطولَ مدّة تستطيعها ، فلمّا انقطع الصَّدى ، وخَفَتَ كل حَفِيفٍ للشجر ، حنت « ماروسيا » رأسها واستسلمت ، دون أن تَعِىَ ، إلى التفكير . . . أجَلْ إلى التفكير .

وَثَقُلَ رأسها وهى تفكّر فى عداء الإنسان لأخيه الإنسان ، ودهشت

---

(١) البلبال : شدة الهم .

كل الدَّهَش أن يستعيض الناس عن المحبّة والسلام بالأذى والعُدْوان ، فساءلت نفسها :

« أفكّر والدى قطُّ فى مشاجرة جيرانه ؟ أخطَرَ ببالِه أن يستولى على منزلٍ غير منزله ، وحقل غير حقله ، مهما حَسُنَ هذا وذاك فى عينه ؟ فلماذا جاء هؤلاء التَّتَر يسلبوننا أرضنا ، ويكلفوننا الدماء الزكية فى استرجاعها ؟ إنها أرض خصبة غنيّة لا تَعْدِلها[1] أرض فى العالَم خِصْبًا وغِنىً ، ولكن أيكون غِناها سببًا فى الاستيلاء عليها وظُلم أهليها ؟ . »

وكانت طفلتنا الصغيرة ، كلّما تَعِبت من طرح مثل هذه الأسئلة التى يَعْجِز عن الجواب عنها أثْقَب العقول[2] ذكاءً وفِطْنة ، رفعت رأسَها وشَخَصتْ ببصَرِها إلى السماء وقالت :

« ياربّ ! يا ربّ ! متى يصلح هذا الناس ؟ ومتى تصفو منهم القلوب ؟ » .

وظلت صغيرتنا تُناجِى نفسها بمثل هذه الخواطر ، حتى تحطَّمت على جُذُوع الأشجار آخر سِهام النور ، فانتشرت العَتَمة ، والتفّت الغابة بثوبٍ كثيفٍ من حَالِك الظّلام ، فانتفضت « ماروسيا » وصَحَتْ من غَفْوَة الأوهام والأحلام ، ورجعت إلى نفسها وقالت تخاطبها :

---

(١) لا تعدلها : لا تشبهها .

(٢) عقل ثاقب : حاذق .

« قال لى : — سأغيب عنك لحظةً قصيرة . . . قال لى : ابْقَىْ فى مكانك ولا تغادريه . . . فها أنا ذى فى مكانى لم أغادره ، ولكن اللحظة القصيرة قد طالَتْ ولم يَعُدْ ، ولست أسمع حركةً ولو بعيدة تنبئنى برجوعه . . . » .

وتلفّتت يمينًا وشمالاً وهى فى موقفها لا تتحرّك عنه ، وأرهفت سمعها الإرهافَ كله ، فما طرقت مسمعَها نَأْمَةٌ [1] تَقْطَع ذلك السُّكون الرّهيب .

وياليتَ ذلك السكون قد دام ! فعلى حين فجأة ، دوَّت طَلَقات النار فى جميع الجهات متلاحقةً متواصلة ، تزيد عن مائة طَلْقة بل تزيد عن ألف ، حتى لَيُخَيَّل إلى السّامع أن القِتال دائر معًا فى كل ناحية من أنحاء الغابة .

استمرّ إطلاق النار نحو عشر دقائق حسِبَتْها الطفلة دَهْرًا كاملاً ، وأعْقَب ذلك الدّوِىَّ سكوتٌ شاملٌ مطلق ، كان أثْقل وطأة على نفس الطفلة الصغيرة ، فَودّت لو تعتلى قِمَم الأشجار لعلها تتبيّن ما يجرى فى تلك الغابة . . . وعادت تفكِّر فى نفسها وتقول :

— « لقد كان هو هَدَف تلك النار . . . أراد ولا شكّ أن يمكّن بعض رجالنا من اجتياز هذه الغابة ففاجأهم كَمِينٌ [2] فيها . . . » .

---

(١) النأمة : الصوت .

(٢) الكمين : القوم يستخفون فى مكمن ثم ينتهزون غرة العدو فينهضون عليه .

ولم تخطئ « ماروسيا » فيما قدّرت واستنتجت، فصديقها « شتشڤيك» والرفاق الذين ذهب يلقاهم ويستطلعهم الأنباء ، كانوا هدف تلك النار ، فقد مرّت بأطراف الغابة فصيلةٌ من فرسان التتر انحدروا إليها من الضفة الثانية من النهر ، وجاءوا مستطلعين مستكشفين ، فلما شعروا بحركة تنبعث من خلال الأشجار ، أمطروا الغابة بوابلٍ من النيران، حتى إذا أيقنوا بعد دقائق أن الحركة قد انقطعت عادوا أدراجهم...

وخشيت « ماروسيا » أن تُطيل التفكير فى مَغَبّة تلك الموقعة ، فضغطت بيديها المرتعشتين على جبينها الملتهب وقالت :

— « وعلام أسترسلُ فى التفكير ! وأيّة جدوى تعود علىّ منه ؟ »

ثم ركعت عند جذع الدوّحة ، وأخذت تُصلّى وتبتهل إلى الله .

وعندما كانت مستغرقةً فى الصلاة ، خُيّل إليها أن أوراق الشجر تتحرّك ، والأغصان تتقصّف ، فحسبت نفسها رهينة حُلْمٍ من الأحلام، ولكن لا . فما هى فى حُلْم ، فالحركة قريبةٌ وعلى قيد خطواتٍ منها ، فاصطبغ وجهُها بلون الورد الأحمر ، وخفق فؤادها خفقاناً شديداً ، فسدّدت نظراتها إلى الجهة التى سمعت منها الحركة ، فرأت الأغصان تنشق عن وجه صديقها ، وقد انعكس عليه ضوء القمر الذى طلع منذ قليل ، وتسرّب ضياؤه إلى الغابة من خلال الأوراق والأغصان، فهمّت بأن تصيح صيحة البِشْر والفرح ، ولكن الصيحة تلاشتْ

عند شَفَتَيْها فلم [1] تَنْبِسْ بكلمة ، وسمعت صديقها الكبير يدنو منها وهو يقول :

— « أتَرَيْن يا " ماروسيا " هذا المِنْديل الأحمر ؟ » .

— « نعم أراه » .

— « أصْغِي إليّ إذن : — سأقودك إلى طَرَف الغابة ، وأُرِيك هناك طريقًا من الطُّرُق ، فعليك أن تسلكيه غيرَ منحرفة عنه ، وتمشي فيه قُدُمًا حتى تَصِلي إلى حقلٍ من القمح يقوم فيه دَرْبٌ ضَيِّق ، فسيري في ذلك الدَّرْب يَقُدْك بعد الحقل إلى جسرٍ صغير ، فضَعِي فوقه إكليل البنفسج ثم اجتازي الجسر وانعطفي شمالاً ، ترَيْ غابةً صغيرة ، سيخرج إليك منها رجلٌ يقول لك : " كان الله في عونك " فقولي له : " لقد أعانني الله " ثم سلّميه المِنْديل . أتفهمين تمامَ الفَهْم يا " ماروسيا " ألن تَنْسَيْ حرفًا مما أقول ؟ » .

وكان الصديق الكبير يتكلم بهدوء لم تتعوَّدْه منه « ماروسيا » وكانت حاله تُشير إلى أنه لا قِبَلَ له بالكلام السَّريع ، ثم بدأ لونه يزداد شُحُوبًا ، في حين كان العَرَق يتصبَّب من جبينه ، فارتمى على شجرة واستند إليها فقالت له « ماروسيا » :

— « أنت جريح ! لقد جرحوك ! » .

— « لا يا " ماروسيا " إنه خَدْشٌ صغير يزول غداً ، فاذهبي

---

(١) نبس : تكلم وأكثر استعماله في النفي . يقال ما نبس بكلمة .

يا عزيزتى ، اذهبى ! » .

وأمسك بيدها فقالت له :

ـ « يدك باردة جداً ! » فقال لها :

ـ « لا تكترثى لِيَدِى يا حبيبتى ! أسْرِعى فى الذَّهاب ، واذكرى ما أوصيتُكِ به :

« تضعين الإكليل أولاً فوق الجسر ، ثم تسلّمين المِنديل إلى الرجل الذى سيخرج إليك من الغابة ويقول لك " كان الله فى عونك " . فتشجّعى يا " ماروسيا " فإنما أطلب منك هذا باسم "أكرانيا " وطنك الذى تحبّينه » .

وحاول الصديق الكبير أن يشقّ للطفلة الطريق ، ويفْسِح لها فيه ، ولكن خانته القوى فجمد قلبها جَزَعاً ، وذهلت من هذا الضَّعْف البادى على الرجل الذى خانته قوته ، وكانت ترى القوة كلها مجَسَّدةً فيه ، فارتعشت لأول مرة أسَفاً وقلَقاً ، على الصديق الذى كانت تظنه أقوى من أن يتطرَّق إليه العجز والوَهَن[1] . غير أنها لم تُثْقِل عليه بالأسئلة ، فقد أدركت أنه قال ما يريد أن يقول .

وفجأة أزيحت الأغصان ، وبَرَزَ منها رجل عِمْلاق مفتول العَضلات قوىّ الساعدَيْن ، فتملّك الخوف قلب الطفلة ، ولكنها وقفت دون صديقها تحميه من بَطْش القادم إليه ، فقال لها « شتشقيك » :

---

(١) الوهن : الضعف .

— « لا تخافِي يا " ماروسيا " إن هذا الرجل صديق وفيّ موثوقٌ به ».

فحيّاها الرجل تحيّة كريمة ، واستأنف « شتشقيك » كلامه وقال :

— « إنه رفيقي " إيفان " انظرى إليه فهو دوحة أخرى من الأدواح » .

— « يكاد يكون أطول منك قامة » .

ومضى « إيفان » يمشى القَهْقرى [1] ، ويُزيح الأغصان بل يحطّمها من طريق « ماروسيا » ونظرته القلقة لا تفارق « شتشقيك » :

فما خَفِيَ على « ماروسيا » من تلك النظرة ، أن صديقها الكبير فى حاجة إلى معونة ، فقد كان يمشى متحاملاً على نفسه ، متكئًا على الأشجار شجرةً شجرةً ، ولكنها سمعته يقول لرفيقه :

— « عُدْ يا " إيفان " سريعًا إلى رفقائنا ، فهم أحْوَجُ منى إلى التفكير فيهم ومعاونتهم ، فقد تكون جِراح بعضهم بليغة ».

فأذعن « إيفان » لمشيئة « شتشقيك » وانطلق انطلاقَ الثور الهائج يحطم فى طريقه كلّ ما اعترضه من حواجز الأغصان وسارت « ماروسيا » وراءه .

وصلت « ماروسيا » و « إيفان » إلى طَرَف الغابة ، واستطاع صديقها الكبير أن يتبعهما ، ليعيد على مسمع « ماروسيا » ، حين تنفصل عنه ، ما كان قد أوصاها به ، فعاد يقول :

— « أتَرَيْن الطريق ؟ . . . إن حقل القمح يقوم إلى يمينه . . . وفى نهاية الدَّرْب الذى يخترقه يقوم الجسر الصغير . . . ستضعين

(١) القهقرى : الرجوع إلى الوراء .

الإكليل فوق ذلك الجسر الصغير . . . وإلى الشمال ستَرَيْن الغابة الصغيرة ، وستسلّمين المنديل لمن يخرج منها إليك . . . يجب أن تَصِلي إلى هنالك ، فأسْرعي يا عزيزتي أسْرِعي . . . إليك المِنديل » .

وكان المِنديل يشبه كلَّ الشَّبَه ، ذلك المِنْديل الذى كانت « ماروسيا » قدّمته إلى الحسناء « ميفودفنا » نسيبة الزعيم ، حتى لقد خُيِّل إليها أنه هو هو ، أو أنها ستقدّمه إليها مرّةً أخرى .

فتناولت « ماروسيا » المِنْديل وقالت :

— « سأقوم بما طلبته منى ، ولن أحيدَ عما طلبت قيد شعرة » .

واشتدّ على «شتشفيك» الألم وخارت قواه ، وكاد يسقط إلى الأرض ، لولا أن سارع « إيفان » إليه وحَماه من السّقوط .

ورأت « ماروسيا » عندئذٍ أن كُمَّ ثوبه ملطَّخ بالدِّماء فقالت :

— « أين جُرْحك الذى يستنزف دَمَك ؟ أهو فى الذِّراع ؟ دعنى أضمِّدْه لك . . . » . فقال لها صديقها الكبير :

— « كونى عاقلةً راشدة يا " ماروسيا " لقد مررتُ بجميع الأخطار دون أن أُخْدَش خَدْشًا صغيراً ، فكان لا بُدّ أن أنال قِسْطى من الجِراح . . . على أنّ جُرْحى ليس بِذِى بال ، فسوف يُعْنَى به " إيفان " فاذهبى أنت يا عزيزتى وأسْرِعى ، فقد طال حديثنا ، فإن استطعتِ أن تحملى هذا المنديل إلى الذى ينتظرك ، تكونى قد قمت بعملٍ جليل . . . اعصبى بهذا المنديل رأسَك يَبْدُ جميلاً حول

شعرك الأشقر الجميل ، وتمكّنى الأنظار من أن تلمحه من بعيد » .

فقالت « ماروسيا » :

— « وأنت ؟ أتبقى هنا ؟ حاذر من كل شىء فى هذه الغابة . . . أألقاك ثانية فيها ؟ » .

وكانت وهى تطرح عليه هذه الأسئلة ، قد عصبتْ رأسَها بذلك المِنديل الأحمر ، بيدٍ مضطَّربةٍ مرتجفة ، فقال لها صديقها :

— « سأبقى هنا ، فإن لم أستطع ، فسوف أعرف أين ألحقُ بك ، فهل على الأرض شىء يفرّقنا ويفصل بيننا ؟ »

ودوّى فى تلك اللحظة طَلْقٌ نارىٌّ منع « ماروسيا » من الجواب ، وأعقبه طَلْق آخر ، ثم توالت الطلقات من جميع أرجاء الغابة ، غيرَ قريبةٍ كل القرب ، ولا بعيدة كل البعد ، فقال « إيفان » :

— « لقد عادوا إلى الغابة واستأنفوا الحمْلَة ، وقد يكونون هنا بعد دقائقَ خَمْس » .

فنهض الأسد ووضع « إيفان » فى يده السليمة أحد أسلحته الناريّة ، فأمسك به وقال :

— « أتسمعين يا " ماروسيا " اذهبى ، واركضى ، بل طِيرى إن استطعت ، وانْسَىْ كل ما عدا ذلك . . . فى "سبيل" أكرانيا ما تفعلين . . . . »

فانطلقت « ماروسيا » انطلاقَ السَّهْم ، وعندما وصلتْ إلى الدَّرْب

الذى ستسلكه فى حقل القمح ، ألحّت عليها النفس أن تلتفت إلى الوراء، فترى مرّةً أخرى ، ذلك البطل الجريح الذى فارقته على كُرْه منها ففعلت ، ولكنها لم تَجِد أحداً فى طَرَف الغابة .

وكان إطلاق النار قد سكت ، فلاحت لها الغابة الصامتة جبلاً طويلاً من الأشباح .

فاستأنفت سيرها غير عابئة [1] بتعبٍ ولا مشقّة، بل طارت إلى غايتها نزولاً عند رغبة صديقها الكبير . واجتازت حقل القمح ، وتجاوزته إلى الجسر الصغير ، فوضعت فوقه الإكليل .

وطرَقَ مسمَعَها عندئذٍ صوتٌ بعيد ، ما لَبِثَ حتى اقترب وسُمِع دَوِيّه ، فعرفت « ماروسيا » فيه وقعَ حوافر جَواد يركض ركضًا حَثِيثًا [2] . ثم لاحَ لها الفارس والجواد فقالت فى نفسها : أصديق يا تُرى فارسه أم عدو ؟ لا يبدو على البعد أنه من القوزاق ، فظهره يدلّ على أنه من التَّتر .

فعادت أدراجَها دون أن تجتاز الجسر ، ولكنها تركت فيه الإكليل وسَرّها أن تقوم بالمرحلة الأولى من واجبها السامى ، واندفعت تختبئ وراء أعواد القَصَب النابتة على ضفاف الجدول .

ووصل الفارس إلى الجسر كالبرق الخاطف ، ورجت « ماروسيا » ألاّ يكون قد رآها وهى راكضةٌ تختبئ .

---

(١) غير عابئة : غير مبالية . (٢) حثيثاً : سريعاً .

ولكن ما كادت « ماروسيا » تخطو بضعَ خطوات فى غمرات ذلك القصب ، حتى لعلعَ صوتُ طلقٍ نارىّ أطاح بصاحبة المنديل الأحمر ، ورماها جثة هامدة بين أعواد القصب .

وشاء الفارس التترى أن يتحقق من إصابة الهدف ، فاجتاز الجسر وأخذ يُجيل الطرف هنا وهنا وهو فوق جواده ، فعثر على الجسم الجميل المنطرح إلى الأرض ، ورآه جسم طفلة صغيرة ، فلم يحفل به ، ولكن المنديل الأحمر استرعى انتباهه فهمّ بأن يلتقطه لولا أن رآه قد تمزّق جانبه فأعرض عنه .

وأطلق الفارس لجواده العنان[1] ، وتابع طيرانه ، متبرمًا من وقفة أضاعت عليه بعض الدقائق سُدًى وعلى غير طائل .

وخيم السكون ثانيةً على تلك البقعة ، كأن لم يحدث منذ لحظات أمرٌ من الأمور عند ذلك الجسر ، ولا سقطت على مقربةٍ منه طفلةٌ باسلةٌ راحت شهيدة الوطن .

وما هى إلاّ دقائقُ قليلة ، حتى خرج من الغابة الصغيرة الواقعة إلى شمال الجسر ، فلاحٌ يحمل عِدلاً[2] ثقيلاً من الحطب فوق كتفيه ، وسار على مهل لا يلتفت يمينًا ولا شمالاً ، حتى وصل إلى الجسر ، فرأى وهو يجتازه ذلك الإكليل من زهر البنفسج ، فالتقطه ، وعلقه

(١) العنان : سير اللجام .

(٢) العدل : بكسر العين : الغرارة أو الجوالق وهو ما تسميه العامة « بالشوال » .

على حمله ، كأنه يريد أن يهديه لأطفاله .

وشاء بعد أن اجتاز الجسر أن يستريحَ قليلاً ، فأنزَل عِدْل الحطب عن كَتِفَيْه ، وأسند ظهره إلى حاجز الجسر ، وأخذ يُسَرِّح بصره عَفْواً فى مختلف الأنحاء .

ولفت نظرَه بعد قليل ، شىء ظنه باقةً من الزهر الأحمر مُلْقاةً بين أعواد القصب ، فخفّ إليها ، فوجد هناك طفلة غارقةً بالدِّماء ، قد انزلقتْ إحدى قَدَمَيْها إلى مياه الجَدْول ، فرفع الجُثّة ووضعَها على الضّفة ، ونظر فى ضوء القمر إلى وجهها الجميل ، فرآه موشّحًا بصُفْرَة الموت ، فعصرتْ قلبَه الشفقةُ والأسى ، ثم جَسَّ بكفّه قلبها الصغير الباسل يتحسَّس دقّاته ، فإذا هو ساكتٌ لا يخفق ، فتحقّق من موت الطفلة ، وركع بإزائها خاشعًا وقال : « كان الله فى عونك » . وهى العبارة التى كانت « ماروسيا » سترُدُّ عليها قائلة « لقد أعانَنى الله » .

ونهض الفلاّح ، وترك عِدْلَ الحطب حيثُ هو ، ولم يأخذ منه إلا الإكليل ، فاجتاز الجسر واتّجه إلى الغابة راكضًا لا يَلْوى[1] على شىء ، وغابَ وراء الأغصان والأشجار . . .

وكان يركض وهو يشدُّ كَفَّهُ على صدره ، فماذا كان يُخْفِى تحت قميصه ؟ كان يخفى تحته المنديل الأحمر ، منديل الطفلة الشقراء التى أحبّتْ وطنَها حُبًّا جَمًّا[2] عميقًا ، فراحت دونه شهيدةً كريمة .

---

(١) لا يلوى : لا يقف ولا ينتظر . (٢) الجم : الكثير من كل شىء .

وهكذا وصل المنديل والإكليل إلى حيثُ كان يجب أن يَصلا ...

لقد قامت « ماروسيا » بأداء مهمتها . . . . وأسْهَمَتْ فى النصر الذى أحرزه حُماةُ الوطن الأحرار . . . وسارت الأمور وفقَ الخُطّة المُحْكَمة التى وضعها الزعيم « شتشقيك » ، فخرج أهل « شيجيرين » يواجهون العدو ، ويُصْلُونَه ناراً حامية ، وأطْبَقَ القوزاق على مَيْمَنته ، وانقضَّ بقية المحاربين على مَيْسَرته ، وأبْدى المهاجِمون من ضُروب الشّجاعة والإقدام ما يُعَدُّ فى الخوارقِ المُعْجزات ، ولا عَجَب فمن يدافع عن وطنه يُمِدّه الله بقوةٍ من عنده ، ويُرْدِفه بأجْنادٍ من السماء تحارب معه ، فدارت الدّوائر على التّتر المعتَدين ، وقُتِلَ منهم مَنْ قُتِل ، وأُسِرَ من أُسِر ، وغَرِقَ فى النهر من لاذ بأذيال الفرار.

هَزَمَ الأكرانيّون أعداءهم هزيمةً مُنْكَرَة ، وأنقذوا بلادهم من بَراثِن[1] الفاتِح المُجْتاح ، ورَجَعُوا إلى أنفسهم يُضَمِّدون الجِراح ، ويبكون الشُّهداء ، وعاد كلّ أكرانىّ إلى حقله وبيته ، أو إلى كوخه ومزرعته يستنبتُ الأرض ، ويسقيها بعَرَق الجَبين . ثم أقْبَل على الحياة يبسم لها وتبسم له ، ويملؤها جِدًّا ونشاطًا ولَهْواً ومَرَحًا .

وعاشت « أكرانيا » عزيزةَ الجانب ، موفورة الكرامة ، فى ظلّ زعيمها الشابّ ، وفى ظِلال من خَلَفَه على الحُكْم من زعماء البلاد. وأمِنَتْ على نفسها غائلةَ التّتر الذين انهارت دولتهم بعد قليل ،

(١) براثن : جمع برثن وهو من السباع والطير بمنزلة الأصبع من الإنسان .

ومزّقتْها الفِتَن شَرَّ مُمَزّق .

وزُفَّت « ميفودفنا » إلى فارسٍ جميلٍ من فرسان القوزاق، ولكنها بقيت مستشارة الزعيم الأولى ، وأُذُنَه السامعة ، وعَيْنَه المُبْصِرة ، تُطْلعه على أحوال الشعب ، وتبثّه رغباتِ المواطنين فيسعى إلى تحقيقها ما وَسِعَه الجهد .

وعاد منزل «دانيلوشابان» إلى أن يكون مُلْتَقَى الأحرار والحرائر[1]، وفى طليعتهم « كروك » و « فورشيلو » و « كنيش » يتذاكرون حوادث الجهاد ، ويتجاذَبون فى زَهْوٍ وخُيَلاء قِصَص النصر والظفر .

وكان تذكار « ماروسيا » يَحْتَلّ مكانه المقدَّس من نفوسهم ومن نفس الزعيم و « ميفودفنا » والشَّعْب أجْمَع ، فما كانوا جميعًا يذكرون اسمها إلاّ محفوفاً بالإجلال والإكرام .

أما « شتشڤيك » فقد توارى عن الأنظار ، وقلبه يضطَّرم حُرْقَةً ولوعةً على « ماروسيا » الشَّهيدة .

وهَيْهاتَ أن ينسى أبناء « أكرانيا » هذه الحِقْبة من تاريخهم المَجيد ، إنها قصة المجد والبطولة ، يرويها الخَلَف عن السَّلَف ، ويقصّها الآباء على الأبناء ، فهنيئًا للأمة التى يُزْهَى يومُها الحاضر بيومِها الغابر، وتستطيع فى مجال الفَخار أن تتغنَّى بأناشيد العزّةوالنصر.

* * *

---

(١) الحرائر : جمع حرة مؤنث حر ، خلاف الأمة والعبدة .

حَدَثَ هذا منذ زمن طويل وغار[1] فى طيّات التاريخ ، ولم يَبْقَ منه ، إلاّ التّذكار الجميل . . . .

فمن يَزُر اليوم ذلك البلد ، ويَجُل بين التّلال التى كانت مدافنَ الأحرار من شُهَداء الوطن ، يَجِدْ تَلاًّ قد صنعته يد الإنسان ، ورفعته فوق جميع تلك التّلال ، ونصبتْ فوقه لوحًا كبيراً من المَرْمَر الوَرْدِىّ نُقِشَ فى أعلاه بِسِنان الخِنْجَر هذا الاسم :

ماروســـيا

ويُسمّى ذلك التّلّ « الكرجان » إنّه ضريح الطفلة الصغيرة ، يجلّله بساط جميل أخضر من الأعشاب ، تناثرت فيه أزهارٌ جميلة عَطِرة ، لا تنبت إلاّ فيه ، ولا تَقَعُ العين على مثلها فى أى مكان آخر ، وهى من الجَمال والبَهاء على جانبٍ عظيم ، حتى لَيحْسبها الرّائى مُقَلَ[2] أطفال صافية ملألئة .

والغريبُ من أمر تلك الأزهار ، أنّها لا تعيش إلاّ فى ذلك التّلّ ، فإن نقلتْ إلى موضع آخر جفّت وذبلت ، وإن زرعت فى تُرْبَةٍ أخرى بقيتْ بزورها فى جَوْف الثّرَى ، لا يَنْبَثِقُ منها شِبْه عودٍ صغير ، ولقد أطلقوا على تلك الأزهار اسم « ماروسيا » .

---

(١) غار الماء : ذهب فى الأرض .

(٢) المقل : جمع مقلة . وهى شحمة العين أو هى السواد والبياض منها .

ويتحدَّث الناس فى مجالسهم وأسْمارهم[1] ، عن قصة ذلك المدفن ، فيقولون إن فتىً من القوزاق مشهوراً بشجاعته وجماله وكرم شمائله ، ولا سيما بحبّه لوطنه ، هو الذى قد بنى وحْدَه ذلك التلّ .

ولم يكن لذلك الفتى إلاّ ذراع واحدة ، أما الثانية فكان قد فَقَدَها فى الدِّفاع عن بلده ، دون العدو المُغير ، فشيّد ذلك التّل باليد الوحيدة الباقية له ، ناقلاً بها التُّراب حَفْنَةً حَفْنَة[2] . وقَضَى فى عمله هذا سنواتٍ طويلة ، بدأه شاباً وانتهى منه أبيض الشعر واللحية .

ويزعُم بعض الرُّواة أن صبيًّا صغيراً اسمه « تاراس » قد طلب من ذلك القوزاق أن يعاونه فى عمله ، فأَبَى أولاً كل الإباء ، ثم أجابه إلى طلبه بعد شديدِ الإلحاح ، فمضى فيه الصبيُّ حتى هَرِم هو أيضًا وشاخ .

وكيفما كان الأمر فالروايات كلها مُجْمِعَة على أنه عندما فرغ القوزاق من بناء التلّ ، ونصب فوقه اللوحَ المَرْمَرىّ ، جلس يبكى بكاءً مُرًّا ، واستمرَّ يَذْرِف الدّمع السَّخين حتى مات .

فما رأى الناس قبل ذلك اليوم أسداً يبكى ، فعَبَراته التى انسكبت من عينيه ، كانت الرِّىَّ[3] الذى سقى تلك الأزهار فأنبتها جميلةً طيِّبة الشَّذا[4] ، لا مثيل لها من قَبْل ولا من بَعْد ، فى أية بقعة من بِقاع العـــالم .

---

(١) أسمار : جمع سمر بفتحتين ، حديث الليل . (٢) الحفنة : فى الأصل ملء الكفين .
(٣) الرى : الماء . (٤) الشذا : قوة ذكاء الرائحة .

ويقول الذين يستطيعون فهم لغة الأزهار ، أن وَسْوَسَة[1] تلك الأزهار فى الليالى القمرية تقول للسّامعين : « إننا لا ننبت ولا نزدهر إلاّ على قبر من بذل حياته فى سبيل الوطن » .

وفى كل عام يحجّ أطفال البلد ، ذكورهم وإناثهم ، إلى ضريح الطفلة الصغيرة يصحبهم أهلهم إليه ، وفى يد كل طفل إكليلٌ من الزهر ، يضعه على الضّريح فى خشوع وإجلال ، ويعود من ذلك الحجّ بصورةٍ لماروسيا أو بمُدلاّةٍ ضُرِبَتْ تمجيداً لذكراها وتخليداً .

ومن الأطفال من إذا روى سيرة الطفلة الباسلة ، وحدّث رفقاءه عن خاتمتها المجيدة ، بكى وانتحب ، ولكن ليس فى هؤلاء الأطفال من لا يَودّ لو كان هو نفسه : « ماروسيا » .

* * *

إن فى هذا العالم ، ويالِلأسف ، أكثر من بلدٍ مظلومٍ مهضوم الحقوق ، يعانى العَسْف والجَور[2] من المستعمر الغاصب ، فليتَ الله سُبْحانه وتَعالى يخلق فى كل بلد من تلك البلاد المظلومة ، كثيراً من أمثال « ماروسيا » يَحْيَون ويموتون على غِرارها[3] ، ويَهَبُون أرواحهم فِدَى الوطن . . .

---

(١) وسوسة : الزهر والحلى : صوته .

(٢) العسف والجور : الظلم .

(٣) على غرارها : على مثالها .

حاشية من المؤلف :

لقد تلقّيت من بعض الأطفال والشّباب ، رسائل مبلّلة بالدموع ، يلومونني فيها على الخاتمة القاسية التى ختمت بها سيرة « ماروسيا » ، ويودّون لو عاشت « ماروسيا » ولم تمت ، فإلى هؤلاء أقول :

« لقد جُرْتُم علىّ وظلمتمونى ، أفلا تَرَوْن أنى بنشر هذه السِّيرة المَجيدة الباهرة مهما كانت خاتمتها ، قد حاولتُ أن أبعث « ماروسيا » حيّة فى القلوب كما هى حيّة فى قلبى ، وأن أحيط ذكراها بهالةٍ من الخلود لا تَفْنَى ولا تَغيب ؟ . . . » .

رقم الإيداع	١٩٧٧/٢٧٢٥
الترقيم الدولى ٦ – ٧٠٤ – ٢٤٦ – ٩٧٧ ISBN	

١/٧٧/٢٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)